المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
معهد الدراسات الإفريقية
الرباط



سلسلة : بحوث ودراسات (12)

جوانب من تاريخ وادي دادْسْ وحضارته

محمد حمام
أستاذ التاريخ الوسيط بكلية الآداب – الرباط

منشورات معهد الدراسات الإفريقية
2002

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
معهد الدراسات الإفريقية
الرباط

سلسلة : بحوث ودراسات (12)

جوانب من تاريخ وادي دادْسْ وحضارته

محمد حمام

أستاذ التاريخ الوسيط بكلية الآداب ـ الرباط

منشورات معهد الدراسات الإفريقية
2002

عنوان الكتاب : جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته

الناشر : معهد الدراسات الإفريقية

سلسلة : بحوث ودراسات

حقوق التأليف : معهد الدراسات الإفريقية ـ الرباط ـ المغرب

التصفيف : مختبر الإعلاميات لمعهد الدراسات الإفريقية

السحب : مطبعة كوثر ـ الرباط

الطبعة الأولى : 2002

الإيداع القانوني : 2002 / 0445

ردمك : 9981 ـ 37 ـ 028 ـ 2

الفهرس

تـصـديـر

يبادر معهد الدراسات الإفريقية بنشر كتاب "***جوانب من تاريخ وادي دادس وحضارته***" الذي وضعه الأستاذ الدكتور محمد حمام نظرا لكون مواضيع الأبحاث التي تناولت المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية الإفريقية تدخل في صميم اهتماماته.

إن من شأن هذا المؤلّف أن يثري خزانة التخصص نظرا لكونه يحتل مركز الريادة في تناول بعض جوانب تاريخ وادي دادس وحضارته انطلاقا من الوثائق المحلية الدفينة، واعتمادا على اطلاع ميداني دقيق، مجالا وساكنة. توفق فيه الباحث في رسم صورة واضحة عن أطوار تشكل الخريطة القبلية بهذه المنطقة، كما تطرق إلى بعض أوجه علاقات السكان بالسلطة المركزية، خاصة التي كانت تتم بواسطة بعض الزوايا أو عن طريق الشيوخ، ثم أبرز بعض تجليات الحضارة بالمنطقة انطلاقا من المآثر التاريخية المحلية التي تظل شاهدة على أصالة متجذرة.

يتجلى منْ خلال البحث أن العمارة بصفة عامة تشكل إحدى مظاهر التميُّز الحضاري بهذه المنطقة المعروفة بطقوسها وأعرافها. ولعل التضامن والتكافل الاجتماعي يشكل هنا أسمى معاني التحضر.

تناول الكتاب أيضا موضوع الماء وانعكاساته على الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ودوره الأساسي الذي يبين بوضوح الطابع شبه الصحراوي في المنطقة برمتها.

يتوخى معهد الدراسات الإفريقية من نشر هذا البحث الإسهام في التعريف العلمي بهذه المنطقة المُغْفَلة التي احتفظت بأصالتها الثقافية وتراثها المعماري، ثم إثارة فضول الباحثين والدفع بهم إلى الاهتمام بدراسة أمثال هذه الموضوعات والمناطق التي لم تحظ بعد بما تستحقه من العناية العلمية، رغم ما تزخر به من مادة خام غنية تغري الباحث بتناولها.

حليمة فرحات

مديرة معهد الدراسات الإفريقية

تقديم

يتردد على ألسنة أناس من مختلف الحيثيات السؤال التالي : هل كتب تاريخ المغرب أم لايزال ينتظر من يكتبه ؟ لاشك أن الجواب يقتضي توضيحات مسبقة من قبيل : التاريخ مشروع كتابة مستمرة متجددة، حسب الآثار، أي الوثائق المتوفرة أو المستكشفة أو الموسعة إليها أسئلة المؤرخين، وحسب أسئلة المؤرخين وهي لا تنتهي وإنما تتكاثر تبعا للقضايا التي تشغل المعاصرين في حياتهم ويودون أن يجدوا لها بدءا في الماضي.

فتغطية تاريخ بلد مّا تشبه تغطيته الكارطوغرافية، فهناك مناطق غير مغطاة بالمرة وهناك مناطق مغطاة وفق سلم صغير تظهر فيه بعض النتوءات هي بمثابة الأحداث السياسية البارزة، وهنالك مناطق مغطاة وفق سلم كبير يظهر التفاصيل، ومع ذلك فالملامح العامة معروفة جملة على الصعيد الوطني العام.

إن تعميق المعرفة التاريخية للمغرب لن يتم إلا عبر دراسات اجتماعية، والدراسة المعمقة في التاريخ الاجتماعي تمر عبر دراسات في التاريخ المحلي، وعلى الصعيد المحلي تأخذ الآثار المفردة بعدها وتكتسب قيمتها، مسجد أو زاوية أو حصن أو برج أو ساقية أو رسالة تعيين ممثل مخزني أو ظهير توقير واحترام أو ميثاق جماعي لضمان استغلال مجال معين أوعرف قبلي لضمان تساكن أمني أو حتى مجموعة من رسوم التملك أو عقود الزواج، إلخ...

بيد أن للتاريخ المحلي سياقه في كل جهة، وله أبطاله وملامحه الاجتماعية، فدراسته مغرية ونكهته جذابة، يشعر فيه الباحث وكأنه يقوم بواجب إزاء جماعة ينتمي إليها أو يرتبط معها بروابط الاهتمام بالأجداد. لم يبدأ هذا الاهتمام بالجامعيين العصريين، إذ سبق إليه أهل القرون الماضية واستمر في القرن العشرين مع من نعرفهم من أمثال ابن زيدان ومحمد المختار السوسي، ولكن ميزة كتاب التاريخ المحلي من العصريين هي هذه القدرة على بناء مواضيع إشكالية بعيدا عن التمسك بجذوع التراجم.

يوضح هذا العمل الموضوع بين أيدي القراء كل هذه المواصفات المتعلقة بالتاريخ المحلي، فهو مجموعة تنقيبات ميدانية في مجال محدد هو وادي دادس، جنوبي الأطلس الكبير الأوسط، جهة قديمة الإسكان على ما يبدو، وفر ماؤها ومرعاها وحصانتها إمكانات أنشطة في منطقة اتصال لها شخصيتها الاجتماعية والثقافية، ولها بالتالي ذاكرتها ووثائقها، لها طقوسها حتى في البناء داخل القرى المعروفة بـ"القصور"، ولهذه القصور أعرافها الحافظة للتوازن، المحددة للمسؤوليات، ابتكرتها "عبقرية" لا تستشعر أي نقص، عبقرية جماعة متضامنة متكافلة تفرض على مكوناتها أوفاق السلم لأن النزاع حول القليل المتاح من الموارد يوشك أن يتسبب في اصطدامات خطيرة تهدد استمرار الجماعة. يتساكن هذا التدبير الذاتي مع الولاء لسلطة عليا هي سلطة الدولة "المخزن" الحاضرة حضورا لا يزيد عما هو ضروري.

في منتصف الطريق بين الأعراف المحلية وسلطة المخزن تتموقع الزاوية، مؤسسة تشترك في أساسها الصوفي مع

خانقات شيراز وقونية وحلب وغيرها. ولكنها هنا تمثل، قبل كل شيء، تقمصات عائلية لمعان تخدم السلم والتوازن المحلي، تبارك أرزاق الأرض أكثر مما تربط الوشائج بتجليات الكون وأسرار السماء. فهي سلطة بين سلطة الجماعة وسلطة المخزن، تستمد مصداقيتها من أدوار ناجحة من جهة ومن معتقدات راسخة في الأذهان تنسب إلى أهلها بركة موروثة، من جهة أخرى.

لاحظ محمد حمام كل هذه الظواهر وقرأها في لغتها الميدانية ولغتها التوثيقية المحلية الملغزة في بعض الأحيان، وخرج بلوحات استعان في رسمها بمعرفته للسان أهل دادس ومجتمعهم السائر في كثير من جوانبه القديمة في طريق الانقراض، فعمله تاريخ تم إنقاذه جزئيا في نهاية المطاف، قبيل اندثاره في المجتمع وعبر اختفاء وثائقه. أنقذه كما فعل الإثنوغرافيون في وصفهم لمجتمعات على وشك أن داهمتها تغيرات العصر الحاضر، تمكن من ذلك بإصرار استمر أزيد من عشرين سنة، تخللها رحيله للدراسة في أوربا، حيث اهتم بالفيودالية في منطقة گاسْكونيا بغربي الجنوب الفرنسي، عبر وثائق لها حيثياتها ولغتها الخاصة أيضا، تَعلَّم منها ولا شك ما جعله يتشجع ويتجرأ على أن يقول في نفسه : هنا أيضا، بدادس، مجتمع له مؤسسات وله تاريخ، فليعرض على الناس، لأغراض علمية ولربما لفوائد تربوية أيضا.

أحمد التوفيق

الرباط، في 2000/03/07

مقدمة المؤلف

يعود اهتمامي بتاريخ وادي دادس إلى منتصف السبعينات عندما كنت طالبا في الإجازة بكلية الآداب بالرباط. وقد مكنني هذا الاهتمام من جمع عدد لا يُستهان به من وثائق المنطقة تهم جوانب متعددة من حياة سكانها : منها ما يتعلق بالحياة الشخصية والعائلية (عقود الزواج والملكية)، والحياة السياسية أو العامة (أعراف القبيلة، وظهائر تعيين مخزنية، وظهائر توقير)، أو الحياة الاقتصادية (عقود البيع والشراء، وعقود استغلال الأرض، إلخ...). وقد قمت في مرحلة أولى بتحقيق العديد منها في إطار البحث لنيل الإجازة في التاريخ بعنوان : "وثائق من أيت سدرات : تحقيق وتعليق"، تحت إشراف الأستاذ العربي مزين. وبعد ذلك، تابعت العمل في تعميق الدراسة التاريخية حولها مدعِّما ذلك بتحريات ميدانية. وهكذا تمخض عن كل ذلك - بمرور الوقت - بروز مواضيع متنوعة ومتداخلة تهم جوانب متعددة من تاريخ وادي دادس وحضارته، وقد تمّت صياغتها في شكل مقالات أعددتها للنشر في بعض المجلات الجامعية (مجلة هسبريس - تامودا) أو للمشاركة في ندوات وطنية أو دولية، وقد تبيّن لي أنه بالإمكان جمعها في كتاب واحد علّ ذلك يسهل أمر الاطلاع عليها والاستفادة منها علميا خاصة وأن تاريخ دادس ظل مغمورا.

وجل هذه الأبحاث منشورة (ماعدا بحثين)، وهي تحاول ملامسة بعض جوانب تاريخ دادس وحضارته، ولا تدعي البتة الإحاطة الشاملة بكل الإشكالات العلمية التي يطرحها هذا التاريخ. بل تزيل فقط الغبار عن منطقة منسية تمتعت وتتمتع

بشخصية اجتماعية وثقافية قوية ضمن النسيج الوطني. ومن ثمة فهي جديرة بالتعريف والعناية بها أكثر.

وهذا العمل لم يتأت إنجازه إلا بالمساعدة والتشجيع اللذين لقيتهما من طرف العديد من مسنّي المنطقة وخاصة منهم أولئك الذين لهم إلمام بماضيها، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ؛ فإليهم وإلى غيرهم من سكان دادس جميعا أهدي هذا العمل المتواضع. وأملي أن يكون محفزا للعديد من أبناء المنطقة ولغيرهم من الباحثين للاهتمام أكثر بتاريخ المنطقة لسبر أغواره التي لا تزال تزخر بكنوز علمية هي في انتظار من يشكف النقاب عنها.

وفي الأخير، أتقدم بالشكر والامتنان لأستاذي الجليل أحمد التوفيق الذي قبل بتواضعه المعهود - دون تردد - تقديم هذا الكتاب للقارئ الكريم، كما أتقدم بنفس الشكر والتقدير للأستاذة حليمة فرحات مديرة معهد الدراسات الإفريقية التي أبت إلا أن تدرجه ضمن قائمة منشورات المعهد.

نبذة تاريخية عن قبائل وادي دادْسْ*

يقع أسيفْ ـ نْ ـ دادْسْ بين مناطق جغرافية وبشرية مهمة على السفح الجنوبي من شرق الأطلس الكبير الأوسط. وهذا الوادي هو على شكل زقاق يتسع تارة ويضيق تارة أخرى حسب الأماكن. تحف به جبال الأطلس الكبير الأوسط من جهة الشمال والغرب، وجبل صاغرو من جهة الجنوب والشرق. ووادي دادس يشكل الرافد الأعلى الأساسي لوادي درعة. إلا أن أهمية هذا الرافد تأتي في كونه يستفيد من المياه الدائمة التدفق لرافده أسيفْ أمْـگُـونْ.

وموقع دادْسْ هذا، جعل منه منطقة اتصال وعبور بين مناطق جغرافية مهمة هي تودغة وتافيلات شرقا، ودرعة جنوبا، وسوس غربا والأطلس الكبير شمالا. وتأتي أهميته أيضا في كونه يشكل منطقة تماس وانتقال بين لهجتين أمازيغيتين هما : تمازيغت وتاشلحيت.

ورغم أن وادي دادس تشرف عليه تضاريس مرتفعة جدا فإن ذلك لم يكن عائقا أمام المواصلات في مختلف الاتجاهات. فحسب شارل دوفوكو[1] فهذا الوادي كانت تربطه بوادي درعة أربعة طرق رئيسية هي :

1 ـ طريق إيدِيلِـي : ومنطلقه من تينْ إغيلْ بقصر أفلاَّنْدْرا وصولا إلى دادس بتراب إيمْغْرانْ، مرورا بوادي أقا ـ نْ ـ لْمَدْفعْ (أحد روافد وادي دادس بتراب إيمْغْرانْ) وتَانْزيتْ.

---

* بحث لم يسبق نشره.

1 - De Foucauld (Vicomte Charles), *Reconnaissance au Maroc (1883 - 1884), Les Introuvables*, Editions d'Aujourd'hui, Paris, 1985, p. 211.

2 ـ طريق أنْفُوگْ المعروف أيضا بطريق تَاگْزَرْتْ : ومنطَلقُهُ من أفرا نَايْتْ سَدْراتْ بدرعة العليا. وكان يؤدي إلى وادي دادس وإيمغران بعد مروره تباعا بأقا ـ نْ ـ لْمَدْفعْ وتانْزيتْ وأقّانُوغَلاّيْ.

3 ـ طريق إيغِيلْ نْوُطُّوبْ : ويقع شمالا بالنسبة للطريقين السابقين وهو الذي سلكه دوفوكو نحو دادس انطلاقا من قصر تَامْنوگالْتْ عبر جبل كيسَانْ المطل على درعة العليا، وجبل صاغرو المتاخم لوادي دادس.

ويشكل قصر تِيمِشّا بأيت إحْيَا السدراتيين آخر نقطة للوصول إلى منطقة دادس.

4 ـ طريق تِيلْگِّتْ : الذي كان ينطلق من قصر أيت عبد الله بأيت سدرات بدرعة العليا. وكان يمر عبر خلاء تيلْگِّيتْ قبل أن يصل إلى دادس وتحديدا إلى قصر أيت ادريسْ بتراب أيت أربَعْمائة السدراتيين.

وقد سجّل دوفوكو أن مدة السفر بين درعة ودادس عبر مختلف هذه المسالك الأربعة لا تتعدى يومين.

أما في اتجاه الشمال فطرق الموصلات كانت تمر عبر الممرات الأطلسية كتِيزِي نايْتْ حَمْدْ بإيغِيل أمْگُونْ الذي يفضي إلى سهل تادلا بعد مروره بأيت سَكْري المغرانيين وأيت بُوگمَّازْ. وهناك أيضا تيزي نْفدغَاتْ الذي يؤدي إلى دمنات عبر إيمغران وانتهاءا إلى سهل الحوز ومراكش.

أما شرقا فإن التواصل بين دادس وتافيلالت كان يتم عبر الطريق المار ببسيط أنْبَدْ الممتد بين قصر إمِيضْرْ وبُومَالْنْ دادْسْ في اتجاه تودغة وأفْركْلَة وغْريسْ.

أما غربا نحو سوس فإن الطريق كان يمر عبر ورزازات صوب تازْناخْت وتالِوينْ بعد اجتياز تيزي نْتَغاتينْ.[2]

ورغم هذا الانفتاح النسبي لوادي دادس على المناطق المصاقبة والبعيدة فإنه حافظ على شخصيته المتميزة في كثير من المظاهر الاجتماعية والثقافية (البناء واللباس والغناء واللغة إلخ...).

ومهما يكن من شيء، فبحكم الأهمية الجغرافية والاستراتيجية والتاريخية التي انفرد بها هذا الوادي فقد ظل عبر تاريخه محط أطماع كثيرة فاستهدفته أهم الاتحادات القبلية الكبرى : كصنهاجة ومصمودة وزناتة.

وقبل رصد بعض المعطيات التاريخية المتوفرة في هذا الباب يجدر بنا رسم صورة عامة عن البنية القبلية الموروثة إلى اليوم بدءا من العالية إلى السافلة.

ففي أعالي وادي دادس توجد حاليا قبائل أيت عطا بامْسَمْرِيرْ، وتليها قبائل أيت تُوخْسِينْ، وبعدها أيت سدرات نْـيِغيلْ (أيت سَدْراتْ الجبل) التي يمتد مجالها إلى مشارف مركز بُومَالَنْ - دادْسْ الحالي. وتليها مباشرة قبائل أيت أشْراحيلْ التي يوجد بومالن - دادس في ترابها. وبعد هذه القبائل نجد قبائل أيت دادسْ المنقسمة إلى فخذتين : فخذة أيت حَمُّو وفخذة إِورْتْگيينْ. وهاتان الأخيرتان يمتد مجالهما على جزء مهم من دادْسْ الأوسط أي على الجزء الذي يتسع فيه المحاط الزراعي مقارنة مع ما سبق ذكره.

---

2 - D. Jacques-Meunié, *Le Maroc Saharien. Des origines à 1670*, Librairie Klincksieck, Paris, 1982, t. 1, p. 124.

وإلى جانب مجال قبائل أيت دادْسْ يوجد مجال أيت سدراتْ نواسيفْ (الذين أطلق عليهم حاليا أيت سدراتْ السهل). وهذه المنطقة السهلية من وادي دادس الأوسط يقيم بها الفرع المسمى بأيت أربعماية أو أيت مْعيّاشْ. وللعلم فإن مجالهم يمتد إلى أن يلتقي بتراب أيت إحيا المستقرين بجزء من آسِفْ أمْݣُونْ قريبا من نقطة التقائه بأسيفْ دادس. وهذا القبيل هو الفرع الثاني المؤلف لأيت سدراتْ نْواسيفْ. وعلى ذكر أسِيفْ أمْݣُونْ فإن قبائل إيمْݣُونْ بفروعها الثلاثة أيت واسيفْ وأيت حَمْدْ وأيت مْرَاوْ تستوطنه من العالية إلى جنوب مركز قلعة امݣونة ببضع كيلومترات، أي قبل أن يصب في وادي دادس بتراب أيت إحْيَا السدراتيين قريبا من قصر تِيزي على ضفته اليمنى، وقصر عِلْقَمْتْ على الضفة اليسرى لوادي دادس.

أما سافلة وادي دادس فتقطنها تباعا قبائل أيت سَكْري (أو زكْري) المغرانية وقبائل بني معقل بسكورة وأخيرا قبائل أيت بُودْلالْ الذين غمرت مياه سد المنصور الذهبي أراضيهم وتم إسكانهم بإدَلْسَانْ بين ورزازات وسكورة.

هذه إذن هي العناصر الأساسية للبنية القبلية الموروثة. ويتجلى منها أن أيا من الاتحادات القبلية الكبرى (أيت سدرات، أيت دادسْ، وإيمْݣُونْ، وأيت عطا، وإيمغران، وبني معقل) لم تتمكن من السيطرة على الوادي كله، وأن هناك بالتالي تفاوتا واضحا في أهمية مجال كل منها. بيد أن أيت سدرات حظوا بحصة الأسد من أراضي هذا الوادي وتجاوزوه إلى وادي درعة كما سيأتي بيانه لاحقا.

بعد هذه التوطئة العامة ماذا نعرف تاريخيا عن وادي دادْسْ ؟

إن أول من أشار إلى دادس وأهله ـ حسب ما نعرفه إلى الآن ـ هو أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق في كتابه "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب" خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وذلك حينما تحدث عن قبائل صنهاجة القبلة وأفخاذها قائلا : "ومن صنهاجة القبلة سولينة إين سولينت معا، وهم من أهل دادس وهو قبيل مستبد بنفسه، وكذلك مزگگة أو مزگگا معا أيضا من صنهاجة القبلة، وهم من أهل دادس وهو قبيل مستبد بنفسه، وهذان القبيلان مضافان إلى أين گفو لا يعتمد عليهم في الحضور ولا في الترتيب، وكأنهم رعية، ولكل فخذ من هذه الأفخاذ شيخ".[3] وواضح من هذه الإشارة أن أهل دادس ربما تقاعسوا عن الانضمام إلى الدعوة الموحدية في بداية أمرها.

وهناك إشارة ثانية لدادس وردت عند التادلي المعروف بالزيات في الترجمة التي أفردها لأبي يحيى أبي بكر ابن ملول [الصنهاجي] الأسود في كتابه "التشوف إلى رجال التصوف" الذي صنفه سنة 617 هـ / 1220 ـ 1221 م. ومما قاله عن هذا الولي الصالح أنه "من أهل قرية [تَانْسْغَرْتْ] من بلد دادسْ من بلاد القبلة وبها مات عام خمسة وستمائة وكان عبدا صالحا...".[4] وكلمة دادس هنا تعني المجال الترابي والجغرافي وليس السكان.

---

3 ـ أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، *المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب*، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص. 55.

4 ـ أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، *التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي*، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، نصوص ووثائق 1، الطبعة الأولى، 1404 هـ - 1984 م، 237، ص. 413.

كما أن قرية تانْسْغَرْتْ المذكورة ماتزال معروفة إلى اليوم وتوجد ضمن قبائل أيت حَمُّو قريبا من سوق خميس ـ دادس الحالي. أما ضريح أبي يحيى فهو مزارة إلى اليوم.

وتضاف إلى هاتين الإشارتين المكتوبتين إشارة ثالثة، لكنها متأخرة إذ تعود إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي، وهي للحسن بن محمد الوزان المعروف بجان ليون الإفريقي، يصف فيها دادس على أنه جبل "شاهق مكسو بالغابات، يبتدئ غربا عند جبل مغران وينتهي في تخوم جبل أدخسان، كما يتاخم جنوبا سهل تودغة...".[5] ويفهم من هذه الإشارة أن منطقة دادس التي يعنيها الأمر هنا هي المنطقة الجبلية من الأطلس الكبير الأوسط المطل على إقليم تادلا. ويظهر أيضا أن نفوذ السعديين لم يشمل دادس بمعناه الواسع إلى حدود سنة 918 هـ / 1512 ـ 1513 م تاريخ قدوم الوزان إلى هذه المنطقة متجها من مراكش نحو سجلماسة. وجدير بالملاحظة أن ما قاله مارمول[6] عن هذا الجبل لا يختلف كثيرا عما قاله الوزان لنقله عنه.

أما معنى اسم دادس فبقي غامضا.

وباستثناء هذه الإشارات العابرة فإن مختلف المصادر التاريخية سكتت عن وادي دادس وتاريخه ربما لكونه يوجد قرب منطقتين أكثر أهمية منه هما درعة وتافيلالت. ويبدو أن المؤرخين القدامى كانوا يعتبرونه جزءا من إحداهما. فالمصادر

---

5 ـ الوزان، *وصف إفريقيا*. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج. 1، ص. 148 ـ 150.

6 ـ مارمول كوبخال، *إفريقيا*، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج. 2، ص. 122 ـ 123.

اليهودية (مخطوط طوليدانو ومخطوط تِيليتْ)[7] التي تحدثت عن تاريخ اليهود بوادي درعة لم تذكره ولا يعرف بالتالي ما إذا كان وادي دادس يندرج ضمن الكيان السياسي الذي أقامه اليهود هناك مدة إلى أن قضى عليه المرابطون. وهذا الموضوع بالذات يجرنا إلى الحديث عن استيطان اليهود بوادي دادس علما بأن أهم تجمع يهودي في جنوب شرق المغرب كان يوجد إلى عهد قريب في هذه المنطقة وتحديدا بقصر تيْليتْ على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط في تراب قبيلة إيورْثگييْنْ. ومن حسن الحظ أننا نتوفر على معلومات مهمة تتعلق بهذا الموضوع أوردها الباحث اليهودي حايم الزفراني في كتابه "ألف عام من حياة اليهود بالمغرب"، وذلك اعتمادا على ما قاله يهودا بيريس أحد حزانات الأطلس الكبير خلال القرن السابع عشر للميلاد، عن أسرته في كتابه المسمى "زهرة لبنان" الذي تم طبعه في برلين سنة 1712 م. ومن جملة ما قاله هذا الحزان في هذا المؤلف، أن أجداده تم طردهم من إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد وشدوا الرحلة إلى المغرب، وأخلدوا إلى الاستقرار بوادي دادس بعدما اشتروا مكان إقامتهم به من سلطان مراكش. وهناك شيّدوا منازلهم وتعاطوا للزراعة والرعي وعاشوا في أمان وطمأنينة وتجنّبوا الاختلاط بغيرهم حفاظا على دمهم الملكي (إذ يدّعون أنهم من بيت الملك داوود). وقد تزايد عددهم إلى درجة أن الأرض التي كانوا يستغلونها ضاقت بهم فاشتروا من السلطان بثمن باهظ أرض تِيْلِيتْ المجاورة.[8] وهكذا يتضح أن قصر تيليتْ لم يكن به قبل هذا التاريخ ساكنة يهودية، وأنه

7 - Jean Mazel, *Enigmes du Maroc*, Ed. Robert Laffont, Paris, 1871, pp. 139 - 143.
8 - Haïm Zafrani, *Mille ans de vie juive au Maroc*, pp. 36 - 37.

كان مِلْكاً خاصا للمَلِك. وهذا الأمر لأبلغ دليل على الأهمية السياسية والاقتصادية التي كانت لهذا القصر قبل هذه الفترة وما بعدها. وهناك إشارة مصدرية واحدة تؤكد ذلك نجدها في "كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار" في غضون القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ومما جاء فيها : "مدينة تِيلِيتْ : هي مبسوطة بين القبائل القبلية، وعليها تمر القوافل، وفيها حصن منيع رتبت فيه الجند، وعمره الوالي، وحوله الأعناب الكثيرة والثمار، والمياه المطردة، والعمائر".[9]

ورغم أن مؤلف الاستبصار لم يحدد بالضبط موقع هذا القصر الكبير الذي وصفه بالمدينة، فإن العناصر التي تضمنها هذا الوصف تنطبق على موقع تِيلِيتْ الحالي في وادي دادس الأوسط الذي يتسم بالانبساط ووجود المياه والأشجار المثمرة وكثرة العمران، إضافة إلى كونه يتوسط مناطق الجنوب الشرقي أو ما اصطلح على تسميته في العصر الوسيط بمنطقة القبلة في الطريق الرابط بين مراكش وتافيلالت. وليس بمستبعد أن تكون مختلف هذه المعطيات وراء اتخاذه مقرا للجند وللحاكم ممثل السلطة المركزية بهذه المنطقة خلال الفترة المذكورة.

وما هو جدير بالملاحظة هو أن قصر تِيليت أصبح بعد ذلك من أهم قصور اليهود ليس في وادي دادس وحده بل في جنوب شرق المغرب كله. فاكتسب سكانه شهرة في الميدان التجاري والاقتصادي بهذه الربوع كما نبغ عدد منهم في الميدان الثقافي العبري. وقد استمر هذا الوضع إلى بداية الاستقلال حيث باع

---

9 ـ *كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار*، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 200.

يهود تيليتْ وغيرهم من يهود وادي دادس أملاكهم للمسلمين ورحلوا إلى فلسطين وبلدان أخرى. وعقب ذلك تدهورت بهذه المنطقة مختلف الحرف اليدوية التقليدية التي كان يتعاطى لها اليهود كصياغة الحلي والدباغة.

وأخيرا، نلاحظ أن رواية يهودا بيريس مهما كانت مهمة في معرفة بداية تاريخ يهود تيليتْ بدادس فإنها لا تشير إلى بقية الساكنة اليهودية التي كانت منبثة في كثير من الأماكن بهذا الوادي في فترة تاريخية يصعب تحديدها في غياب الوثائق والمصادر التاريخية.

استقرار القبائل بوادي دادس :

أ - صنهاجة القبلة :

كما سبق الذكر تعتبر إينْ سُوليْنْتْ ومزگگا من بين قبائل صنهاجة القبلة التي استوطنت وادي دادس حسب البيذق. وهاتان القبيلتان لم نجد لهما ذكرا في المصادر التاريخية بعد القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. فهل يعني ذلك أنها انقرضت أو تم تهجيرها أو تمّ دمجها ضمن قبائل أخرى استوطنت المنطقة بعد ذلك ؟ هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها حاليا. ومن جملة قبائل صنهاجة القبلة التي ذكرها البيذق أيضا خلال نفس الفترة إيورْتْگيينْ الذين اعتبرهم فخذا من أفخاذ إيمگُونْ (امگونة) دون تدقيق لمكان استقرارهم. فهل استوطنوا في ذلك الوقت المنطقة التي توجد بها القبائل التي ماتزال تحمل إلى اليوم نفس الاسم ؟ أم أنهم كانوا يقطنون على ضفتي أسيف أمْگونْ مع إخوانهم إيمْگونْ ؟ وهل كانوا في أماكن أخرى وانتقلوا بعد ذلك إلى وادي دادس ؟ هذه أسئلة أخرى من الصعب الإجابة عليها اليوم.

وتعد قبيلة أيت مُوتْدْ من قبائل صنهاجة القبلة التي استمرت إلى وقتنا الحالي بحيث نجد قصرا مايزال يحمل هذا الاسم شمالي مركز بُومالْنْ ـ دادسْ على الضفة اليمنى لوادي دادس. بيد أن البيذق صنف أيت مُوتْدْ ضمن اتحادية إيفشْتَالْن[10] (فشتالة) دون تحديد دقيق لمكان استقرارهم. والمعروف أنه لا توجد اليوم قبائل تحمل هذا الاسم في هذه المنطقة والمناطق المجاورة. وللعلم فقبيلة فشتالة توجد حاليا في شمال مدينة فاس بقيادة قلعة سلاس.[11]

كما أشرت قبل قليل فقد صنّف البيذق إيمگون (امگونة)[12] ضمن قبائل صنهاجة القبلة دون أن يوطن بالضبط أماكن وجودها في وقته. فهل كانت هذه القبائل وقتئذ تقطن أسيف أمگون الحالي أم لا ؟ وما نلاحظه في هذا الصدد هو أن أسماء بعض أفخاذ إيمگون الذين أوردهم البيذق لايزالون معروفين إلى اليوم لدى هذه القبيلة : كأيت حَمْدْ وأيت كْلاَ وأيت عيسي إضافة إلى إيورْتْگيين الذين يوجدون حاليا بوادي دادس الأوسط كما سبق الذكر.

ب ـ أيتْ سدْراتْ (سدراتة) :

يتفق المؤرخون على أن أيت سدرات من القبائل الزناتية الأولى التي استقرت بشمال المغرب الأقصى، وعلى أنهم من القبائل التي بايعت إدريس الأول سنة 172 هـ/ 789 م.[13] وقد

---

10 ـ البيذق، *المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب*، ص. 54.

11 ـ البيذق، *المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب*، مرجع سابق، ص. 54، هامش 124.

12 ـ ن. م. س، ص. 53.

اعتبرها الباحث جورج كُوڤْرور Georges Couvreur من قبائل المخزن الإدريسي واعتقد أن استقرارها بمنطقة دادس تم في غضون القرن الحادي عشر للميلاد وذلك بإيعاز من بعض الشرفاء الأدارسة الذين كانوا قد استوطنوا المنطقة قبل ذلك.(14) وأشير في هذا الصدد إلى وجود رواية شفوية لاتزال متداولة لدى قبائل أيت سدرات مفادها أن أصلهم من أيت سَادْنْ القريبين من فاس عاصمة الأدارسة. وحسب نفس الرواية فإن قدومهم إلى أسيفْ - نْ - دادسْ كان بإيعاز من شريف إدريسي كان يدعي مولاي بوعمران آل إليه حكم هذه المنطقة في فترة يصعب تحديدها. المهم أنهم شدوا أزره، ولما توفي دفن في الزاوية التي لاتزال تحمل اسمه على الضفة اليمنى لوادي دادس قريبا من مركز قلعة امگونة. ويقام بها موسم سنوي في عاشوراء.

غير أن المادة المصدرية المتوفرة لا تؤكد ما تناقلته هذه الرواية الشفوية وتبين بالتالي أن استقرار أيت سدرات بوادي دادس لم يتم في غضون القرن الحادي عشر للميلاد كما ذهب إلى ذلك جورج كوڤْرور، بل تؤدي بنا إلى الاعتقاد أن استقرارهم به ربما تم في فترة متأخرة عن القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد بدليل أن المصادر التي أشارت إليهم خلال نفس الفترة ذكرت وجودهم في أماكن أخرى من المغرب غير منطقة دادس. ففي سنة 454 هـ / 1062 م ورد ذكرهم ضمن قبائل فاس التي

13 - علي بن أبي زرع، *روض القرطاس*، ص. 20 ؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج. 6، ص. 147 ؛ جعفر الناصري، *كتاب الاستقصار*، ج. 1، ص. 155.

14 - Georges Couvreur, *La vie pastorale dans le Haut-Atlas Central*, in Revue de Géographie du Maroc, n° 13, 1968, p. 14.

قامت في وجه يوسف بن تاشفين أثناء محاصرته لهذه المدينة.[15] وذكر ابن أبي زرع أيضا أن هذا السلطان المرابطي قاتل أيت سدرات وأهل صفرو سنة 465 هـ / 1072 م.[16] ويظهر أن أيت سدرات ربما توغلوا داخل الأطلس المتوسط في غضون النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد. ذلك أن البيذق تحدث عنهم بعد استيلاء عبد المومن بن علي على بلدة أزرو بالأطلس المتوسط. وإثر ذلك تفرق جيشه إلى فريقين: فريق توجه إلى بني كانون وآخر إلى تيظاف "فوجد أيت سدرات، وبنو أمرسال وأهل ملوية".[17] أما الشريف الإدريسي فقد سجّل أن أيت سدرات أو على الأقل فريقا منهم كان يراقب الطريق الرابط بين تلمسان وسجلماسة".[18] كما نجده يوطنهم في مكان آخر بين مدينتي مراكش وسلا على الساحل الأطلسي. وفي هذا الصدد يقول : "ومن مدينة مراكش إلى مدينة سلا على ساحل البحر تسع مراحل أولها تونين. وتونين على أول فحص أفيح لا عوج به ولا أمنا وطول هذا الفحص مرحلتان ويسكنه من قبائل البربر قزولة ولمطة وصدرات".[19]

---

15 - علي بن أبي زرع الفاسي، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، دار المنصور، الرباط، 1973، ص. 139.

16 - ن. م. س، ص. 167.

17 - البيذق، (أبو بكر الصنهاجي)، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، دار المنصور، الرباط، 1971، ص. 50.

18 - الشريف الإدريسي، كتاب *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ج. 1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر (ب. ت)، ص. 249 - 250. والملاحظ أن الإدريسي يرسم هذا الاسم بالصاد وليس بالسين.

19 - الشريف الإدريسي، *كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ج. 1، ص. 236.

وقد ظلت جموع من أيت سدرات متمركزة شمالي فاس أثناء ظهور حركة بني مرين في شمال شرق المغرب في بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد. وكانوا من جملة القبائل التي بايعت الأمير عثمان بن عبد الحق بعد مقتل أبيه الأمير عبد الحق المريني مع ابنه إدريس من طرف قبائل بني رياح العربية سنة 614 هـ / 1217 م.[20] ولم يكتف أيت سدرات بمبايعة إخوانهم بني مرين بل وقفوا إلى جانبهم وشدوا أزرهم في القضاء على خصومهم الثائرين عليهم. وهكذا اعتمد عليهم الأمير يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني في محاربة الثائر عمر بن عثمان بن يوسف الذي تحصن في قلعة فندلاوة بجبال بني يازغة في بداية ولايته. وفي هذا الشأن يقول ابن أبي زرع : "وأمر الأمير يوسف قبائل بني عسكر ومن بتلك الجهات من قبائل البربر من سدراتة وبني وارثين وبني يازغة وبني سيتان وغيرهم بحصاره وقتاله، فحاصروه مدة من شهر ثم خرج أمير المسلمين إليه بنفسه... [ولما] علم أن لا طاقة له بالحصار ولا مقدرة له على مدافعة أمير المسلمين، فبعث إليه الصلحاء يأخذون له الأمان منه، فأمنه ونزل إليه فبايعه وصرفه إلى تلمسان بجميع أهله وماله".[21]

إن ما يمكن استخلاصه من التحليل السابق، هو أن وادي دادس ربما شهد استقرار أيت سدرات به في غضون القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد. وهذه الفترة هي فترة عرف فيها المغرب الأقصى انهيار النظام الموحدي وقيام النظام

20 ـ ابن أبي زرع، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، ص. 286 ـ 289.

21 ـ ن. م. س، ص. 377.

المريني محله. وقد صاحب ذلك تحركات بشرية كبرى همت المجال المغربي برمته شمالا وجنوبا كان من نتائجها إعادة توطين كثير من القبائل في مَوَاطن غير المَواطِن التي كانت فيها إلى ذلك الحين. وهذه التحركات الكبرى قامت بها خاصة قبائل زناتة بزعامة بني مرين وقبائل عرب بني معقل. ويبدو أن هذه القبائل كانت متنافسة في السيطرة على المجال المغربي. ففي الوقت الذي بسطت فيه قبائل بني مرين نفوذها على مناطق شمال المغرب، نزحت قبائل بني معقل مضطرة إلى سهل سوس عبر ما سماه الأستاذ محمد القبلي "بالمغرب الخارجي" أي مناطق القبلة أو بلاد الواحات. ولمنع تسرب بني معقل إلى السهول الشمالية الغربية قام بنو مرين بإبعادهم عن مداخلها ورصدوا من أجل ذلك حواجز بشرية دونها "على طول وادي ملوية ما بين بلاد الزيز ووادي صا، وذلك إما بواسطة قبائل مرينية أو زناتية أخرى كمكناسة وبني ونجاسة وبني يرنيان، وإما بواسطة قبائل حليفة...".[22] لهذا ليس مستبعدا أن يكون أيت سدرات قد استقدموا إلى دادس من طرف بني عشيرتهم بني مرين وذلك في إطار هذه السياسة التي كانت ترمي إلى محاصرة بني معقل في مناطق الواحات وسهل سوس التي اكتسحوها من قبل. وكونهم سيطروا على دادس الأوسط وكذا عاليته يدل دلالة واضحة أنهم أحكموا السيطرة عليه لمنع كل تسرب محتمل لهذه القبائل نحو مناطق الشمال عبر ممراته.

---

22 ـ محمد القبلي، *حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد*، مجلة كلية الآداب الرباط، عدد مزدوج 21 ـ 22 (1996 ـ 1997)، ص. 58.

ومن جهة أخرى، فقد أدى هذا النزوح الزناتي إلى وادي دادس ممثلا في قبائل أيت سدرات إلى حدوث نزاعات بينها وبين قبائل صنهاجة القبلة التي كانت تستوطنه من قبل وخاصة منها قبائل إيمگون التي تم استيطان هذه القبائل النازحة على حساب بعض أراضيها. وقد اشتدت حدة هذه النزاعات بين الجانبين مع مرور الوقت بسبب التنافس على مجالات الرعي وخاصة في جبل صاغرو الذي حاولت السيطرة عليه قبائل أخرى مثل إيمغران وأيت عطا. ونظرا لتضارب مصالح مختلف هذه القبائل فإن ذلك كان مدعاة للتحالف في ما بينها ضد بعضها البعض. فبرز حلفان قويان في مناطق القبلة والأطلس الكبير والأوسط والشرقي هما حلف أيت عطا وحلف أيت يَفْلْمَان. فالأول حسب المهدي الناصري في مؤلفه "نعت الغطريس" كان ينتصر له في المعارك أيت مَصادْ ومن تبعهم من قبائل إحَنْصالْنْ وأيت بُوگمّازْ وبنو مْحمّدْ وأهل الغرفة ومن تبعهم في تافيلالت وأيت يوسي وأيت نْضيرْ وأيت امْگيلْدْ وإشْقيرْنْ بالأطلس المتوسط. أما الثاني فكان يقف إلى جانبه في المعارك أيت سدْراتْ وإيمْغرانْ وأيت يِسْري وزيّان وإيگرْوان.(23)

ويبدو أن أيت سدرات شكلوا قوة سياسية وعسكرية مهمة كان يحسب لها حسابها في هذه المناطق. ويتجلى هذا الأمر بصفة خاصة في استنجاد سكان درعة العليا بهم للوقوف أمام استفزازات وتعسفات قبيلة أولاد يحيى خلال الثلث الأول من القرن الثامن عشر للميلاد. وحسب الرواية الشفوية المتداولة

---

23 ـ المهدي بن العباس الناصري، *كتاب نعت الغطريس الفسيس هيّان بن بيّان المنتمي إلى السوس* (مخطوط خاص)، ص. 468 ـ 469.

فإن الولي الصالح سيدي مَنْديلْ دفين قصر تَانْسِّيخْتْ هو الذي توسط في أمر تدخلهم هناك لما كان يحظى به لديهم من احترام وتقدير. وتضيف نفس الرواية أن سكان درعة العليا تعهدوا لأيت سدرات بأن يتخلوا لهم عن نصف الأرض التي سيحررونها من قبضة أولاد يحيى. وقد انتهز أيت سدرات الفرصة وأبعدوا أولاد يحيى عن درعة العليا وفرضوا حمايتهم على المنطقة وأقاموا فيها قصورهم. وهذا التوسع زادهم قوة ونفوذا في هذه المنطقة كلها.[24] كما يظهر أن أيت سدرات استطاعوا إدماج قبائل جديدة ضمن قبيلتهم الكبرى وهذا ما حدث في فترة يصعب تحديدها ويتعلق الأمر بقبيلة أيت تُوخْسينْ التي يوجد مجالها حاليا في عالية دادس وتحديدا بين المضايق وامْسَمْرِيرْ. وهذه القبيلة انضمت إلى أيت سدرات وقدمت لهم تِيغَرْسِي (أي الذبيحة) بعدما غادرت موطنها الأصلي في أيت سيدي علي أوبورْكْ بجبل صاغرو.[25] وإذا كنا نجهل أسباب وظروف مغادرتها هناك فمن المحتمل أن يكون أيت عطا الذين سيطروا على جزء كبير من جبل صاغرو هم الذين كانوا وراء ذلك.

ج - بنومعقل بسكورة :

يستخلص من المعطيات التاريخية المتوفرة أن استقرار قبائل بني معقل بأرض هسكورة جنوب إيمغران ربما تم هو الآخر في نهاية الدولة الموحدية وبداية الدولة المرينية خلال القرن الثالث عشر للميلاد. وكما سبق الذكر فليس مستبعدا أن

24 - Georges Spillmann, *Districts et tribus de la haute vallée du Dra*, Paris, 1931, pp. 64 - 65.

25 - هذه الرواية متداولة حاليا لدى مُسنّي أيت سدرات.

يكون لهذا الاستقرار علاقة ما باستقدام أيت سدرات إلى وادي دادس للحد من توغل هذه القبائل في الممرات الأطلسية في اتجاه السهول الشمالية التي تغلبت عليها قبائل بني مرين وزناتة. ويبدو أن استيطان بني معقل بهذه المنطقة تمّ على حساب هساكرة القبلة الذين تراجع نفوذهم وقتئذ لصالح أيت سدرات. وقد انشغل بنو مرين بتحركات المعاقل بهذه الجهات إلى درجة أن السلطان أبا يوسف يعقوب قاد بنفسه حملة ضدهم سنة 669 هـ / 1271 م انتصر فيها عليهم.(26) وقد قاتلهم ابنه وخلفه أبو يعقوب يوسف هو بدوره سنة 686 هـ / 1286 م.(27)

د - إيمغران (هسكورة القبلة) :

أشرت سابقا إلى حضور إيمغران بوادي دادس خصوصاً بسافلته. وهذا الحضور تمثله حاليا قبيلتي أيت زَكْرِي وأيت بُودْلاَلْ بفروعهما. وجدير بالذكر أن إيمغران صنّفهم البيذق ضمن الأفخاذ السبعة المؤلفة لهسكورة القبلة الذين هم : "أهل تندوت، وهم بنو واوارت أيت واوارت معا، وتندوت موضع، زمراوة إيزمراون معا، مغرانة إيمغران معا، فسفسة إيفسفيسن معا، گرنانة إيگرنان معا، بنويلفتن، أيت يلفتن معا، ونيلة إيونيلْنْ معاً".(28)

---

26 - ابن أبي زرع، *الأنيس...*، ص. 307 ؛ *الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية*، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 122 وما بعدها.

27 - ابن أبي زرع، *الأنيس...*، ص. 378.

28 - البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، *المقتبس من كتاب الأنساب...*، ص. 52.

وهذه المعطيات على قلتها تجعلنا نلاحظ ما يلي :

1 - أن بعض هذه الأفخاذ لم يعدْ لها وجود بين قبائل هذه المنطقة في وقتنا الحاضر (أيت يلفتن مثلا).

2 - أن فخذ إيمغران استطاع أن يكبر ويتوسع ويشكل بالتالي اتحادية كبرى حلت محل اتحادية هسكورة القبلة القديمة.

3 - أن إيونيلن أدمجوا فيما بعد وفق حيثيات غير معروفة ضمن اتحادية إكْلِيوَا أو كلاوة.

4 - أن إيفَسْفِيسَنْ قد غادروا بعد ذلك هذه المنطقة في ظروف مجهولة إلى شمال وادي سوس بإدوتنان قريبا من مدينة أكادير.[29]

5 - أن تندوت كانت القاعدة الكبرى لهساكرة القبلة خلال القرن الثاني عشر الميلادي بدليل أن ابن تومرت توجه إليها لإخضاعها سنة 520 هـ / 1129 م.[30]

وكان إيمغران كغيرهم من قبائل بلاد القبلة يعيشون حياة النجعة فكانوا يملكون "عدداً وافرا من الماشية بحيث لا يمكنهم الاستقرار في أي مكان، فيتخذون لذلك أكواخا من لحاء الشجر منبثة على عصي طويلة رقيقة، وسقوفها من قضبان مقوسة على شكل نصف دائرة". والواقع يقول حسن الوزان "أنهم يستقرون في جهة ما خلال فصل الشتاء ويبنون شبه اصطبلات منخفضة مغطاة بأغصان الشجر يخبئون فيها حيواناتهم

---

29 - البيذق، *المقتبس*...، ص. 52، هامش 116.

30 - البيذق، *أخبار المهدي*...، ص. 95.

باللبل...".[31] وقد لاحظ الوزان أيضا لما مر بجبل إيمغران راجعا من درعة إلى مراكش سنة 917 هـ/ 1511 م ـ 1512 م أن سكانه "يسكنون أخصاصا".

هـ ـ أيت عطا :

بعد استقرار قبائل بني معقل في جنوب شرق المغرب (درعة وتافيلالت) في غضون القرن الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ظهر بالأطلس الكبير الشرقي وتافيلالت حلف أيت عطا فانضمت إليه قبائل هذه الناحية. إلا أنه سرعان ما تولد عنه حلف آخر هو حلف أيت يفلمان بزعامة قبائل أيت حْديدّو وأيت مَرْغادْ.[32] ويظهر أن حلف أيت يفلمان كان يهدف إلى وقف زحف قبائل أيت عطا على أراضي الرعي بهذه المنطقة الواسعة بعدما أحكمت سيطرتها على تافيلالت وجبل صاغرو وأجزاء مهمة من وادي درعة. كما يظهر أيضا أن تحركات قبائل أيت عطا كانت مصدر قلق وانزعاج قبائل أسيف ـ نْ ـ دادسْ مما أدى بأيت سدرات وإيمغران إلى الانضمام إلى حلف أيت يفلمان.

ومع ذلك فقد تسلّل أيت عطا إلى وادي دادس فتمكنوا من الاستيلاء على بعض أراضيه خاصة في المنطقة التي تسمى حاليا أشْرَاحِيلْ قرب بُومَالْنْ ـ دادسْ فأقاموا هناك قصورا مهمة

31 ـ الحسن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي، *وصف إفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1402 / 1982، ج. 1، ص. 148.

32 ـ حول ظهور هذا الحلف وغيره يراجع المؤلف القيم للأستاذ العربي مزين حول تافيلالت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد :

Larbi Mezzine, *La Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc au XVII° et XVIII° siècles*, Publ. de la Faculté des Lettres de Rabat, Imprimerie Najah El-Jadida, Casablanca, 1987, p. 273 et suivantes.

مثل سْلِيلُّو وبُومَالنْ وأيت بُووَلَّلْ وتَارْمُوشْتْ وغيرها. ولم يقتصر حضورهم في هذه المنطقة من دادس بل نجد بعض قصورهم في دادس الأوسط بتراب إيورتْگيين. ومن قصورهم المهمة بهذه المنطقة أيت أُوزّين وأيت عَلْوان (قريبا من سوق الخميس - دادس الحالي) وأيت بولْمان وأيت حَقّي. وليس بمستبعد أن يكون إيورتگيين قد ساعدوا أيت عطا للإقامة بين ظهرانيهم حفاظا على التوازن مع جيرانهم أيت سدرات. وحضور بعض قبائل أيت عطا بهذا الوادي هو حديث العهد بحيث يعود إلى نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين ولم يكن مكثفا بالقدر الذي أدى إلى إخلال بالتوازن القبلي العام للمنطقة.

الخلاصة :

وتمكّننا هذه اللمحة من استخلاص ما يلي :

1 - أن موقع أسيف - نْ - دادس كان ذا أهمية كبرى في ما كان يعرف ببلاد القبلة خلال العصر الوسيط.

2 - أننا لازلنا نجهل الكثير عن فترات من تاريخه كالفترة القديمة والعصور الأولى للإسلام.

3 - أن بعض قبائل دادس المعروفة خلال القرن الثاني عشر الميلادي قد انقرضت في ظروف غامضة (مثل إينْ سُولينْتْ ومْزگگا).

4 - أن العنصر اليهودي كان مهما عبر تاريخ المنطقة إلى فترة حديثة العهد. غير أن جوانبا من تاريخ هذا العنصر لاتزال غامضة.

5 - أن وادي دادس قبل استيطان أيت سدرات به كانت

تتوزع أراضيه قبيلتا صنهاجة القبلة في العالية والوسط، وهساكرة القبلة في السافلة.

6 - أن الاستقرار الزناتي به ممثلا في قبائل أيت سدرات ربما تم خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بإيعاز وتشجيع من بني مرين، وذلك ضمن خطة واسعة كانت ترمي إلى منع التسرب المعقلي نحو السهول الشمالية الغربية. وهذا الطرح يُنفّد الاعتقاد السائد بأن استقرار أيت سدرات بهذه المنطقة تم تلبية لطلب بعض أحفاد الأدارسة خلال القرن الحادي عشر للميلاد.

7 - إن نزوح هذه القبائل من الشمال نحو الجنوب يُدحّض المقولة الشائعة التي مفادها أن القبائل عبر تاريخ المغرب كانت تتحرك دوما من الجنوب في اتجاه الشمال. إذن فنزوح أيت سدرات إلى دادس يشذ عن هذه القاعدة.

8 - أن استقرار بني معقل بسكورة جنوبي إيمغران ربما تم هو الآخر خلال نفس الفترة وأنه تم على حساب هسكورة القبلة.

9 - أن البنية القبلية الموروثة إلى الآن بوادي دادس ربما تشكلت وتكاملت عناصرها خلال الفترة المرينية.

10 - أن تسرب أيت عطا إلى المنطقة تم في فترة متأخرة وأنه لم يغيّر كثيرا هذه البنية.

11 - أن قبائل وادي دادس نظرا لتضارب مصالحها انقسمت إلى فريقين متنافسين : فريق إيمگون المنضم إلى حلف أيت عطا وفريق أيت سدرات وإيمغران المساند لحلف أيت يفلمان.

مصادر ومراجع البحث

أ - باللغة العربية :

- أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، الظاهر (ب. ت)، المجلد الأول.

- أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

- نفس المؤلف، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

- أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1404 هـ/ 1984 م.

- مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرين، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1408 ـ 1409 هـ/ 1988 ـ 1989 م، ج. 2.

- مجهول المؤلف، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

- المهدي بن العباس الناصري، كتاب نعت الغطريس الفسيس هيّان بن بيّان المنتمي إلى السوس (مخطوط خاص).

- محمد القبلي، حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد، مجلة كلية الآداب الرباط، عدد مزدوج 21 ـ 22، 1996 ـ 1997، ص. 74 ـ 75.

- علي بن زبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973.

- الحسن بن محمد الوزان، (الفاسي المعروف بجان ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1400 هـ ـ 1980 م، ج. 1.

ب ـ باللغة الفرنسية :

- Georges Couvreur, La vie pastorale dans le Haut-Atlas central, in Revue de géographie du Maroc, n° 13, 1968.

- Charles De Foucauld, Reconnaissance au Maroc (1883 - 1884), Les Introuvables Editions d'aujourd'hui, Paris, 1985.

- D. Jacques-Meunié, Le Maroc saharien. Des origines à 1670, Librairie Klincksieck, Paris, 1982, 2 vol.


- Jean Mazel, Engimes du Maroc, Ed. Robert Laffont, Paris, 1971.

- Larbi Mezzine, La Tafilalt. Contribution à l'histoire du Maroc

au XVII° et XVIII° siècles, Publ. Faculté des Lettres de Rabat, 1987.

- Georges Spillmann, Districts et tribus de la haute vallée du Dra, Paris, 1931.

- Haïm Zafrani, Mille ans de vie juive au Maroc, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1983.



خريطة قبائل وادي دادس
الأطلس الكبير
أمسمرير
أيت تو خسين
أيت سدرات نيغيل
بومالن دادس
أيت أشراحيل
أيت حمو نذادس
تانسغرت
تيليت
أيت سدرات نواسيف
(أيت اربعماية)
أكرسيف
قلعة مكونة
أيت سدرات نواسيف
(أيت إحيا)
توندوت
أيت سكري (إيمغران)
سكورة
بنو معقل
أيت بودلال (إيمغران)
ورزازات
جبل صاغرو
أيت سدرات نيغيل: إسم القبيلة المسيطرة على المجال
قرية معروفة خلال العصر الوسيط
مركز حديث العهد
مقر عمالة الإقليم
واد دائم الجريان
واد موسمي

وثائق غميسة تبرز أهمية زاوية أتْسْفَالْ

بوادي دادس خلال القرن التاسع عشر *

كثيرة هي الزوايا المنبثة في كثير من المناطق المغربية وخاصة منها القروية، وهي عادة من عمل مرابطين (إكَرّامْنْ) أو شرفاء يجهلهم التاريخ فلا نعرف عنهم أي شيء[1]، فكانت زواياهم تظهر في ظروف تاريخية معينة، فيتوسع نفوذها الروحي والمادي برهة من الزمن وذلك تبعا لظروف محلية - كثيرا ما تظل هي الأخرى مجهولة - ليتقلص في النهاية ويصبح غير ذي أهمية.

وما زاوية أتْسْفالْ التي توجد بأسفل وادي دادس إلا مثال من تلك الأمثلة العديدة التي يمكن الكشف عنها في عدة جهات من المغرب. وإذا كنا لا نتوفر في الوقت الراهن إلا على نزر يسير من المعلومات التاريخية حول هذه الزاوية، فإنها تبدو مع ذلك كأهم زاوية بوادي دادس خلال القرن التاسع عشر.

---

* - بحث منشور في مجلة دار النيابة، السنة الثانية، العدد السادس، ربيع 1985، ص. 51، ص. 57.

1 - بقطع النظر عن بعض الدراسات المنجزة أيام الحماية عن بعض الزوايا المغربية لأغراض استعمارية، فإن معرفتنا التاريخية تظل ضعيفة في هذا الباب رغم ظهور دراسات قليلة في الآونة الأخيرة. ولعل السبب في ذلك راجع إلى ما يعترض سبيل الباحث من صعوبات شتى في هذا الباب خاصة إذا تعلق الأمر بالزوايا الصغيرة المنتشرة في البوادي، فهي في غالب الأحيان لا تتوفر على وثائق، وإذا حصل أنها كانت تتوفر عليها في وقت من الأوقات فإنها اليوم مفقودة.

يُعتَقَدُ أن تسمية أتْسْفال[2] التي تعرف بها هذه الزاوية هي تحريف لكلمة وادي أسفل نسبة إلى وقوعها في أسفل وادي دادس. وحسب الرواية الشفوية المتداولة حاليا لدى مرابطيها ولدى سكان المنطقة فإن بناءها ينسب إلى ولي صالح اسمه سيدي الحاج أحمد.[3] أما تاريخ بنائها فلا يعرف بالضبط ولئن

---

2 - كلما ألحقت كلمة أيت بأتْسْفالْ فإنها تنطق أيت وَاتْسْفال.

3 - بالرغم مما قد يشوب هذه الرواية من بتر أو زيادة أو تضخيم فإننا نفضل إيرادها كاملة كما التقطناها من أفواه بعض مرابطي هذه الزاوية وغيرهم من سكان المنطقة.

سيدي الحاج :

"هو الشريف مولاي أحمد من أبناء سيدي محمد بن إدريس الثاني، تتلمذ وتلقى العلم عن الشيخ مولاي محمد بن بلقاسم الذي كان صوفيا مشهورا في زمانه، وكان يدرس العلم في قرية أمريديلْ بسكورة (إقليم ورزازات). وقد كان إلى جانب سيدي الحاج أثناء دراسته عند شيخه هذا، كل من الولي الصالح سيدي داوود (باني زاوية تعرف باسمه بقصر أيت يديرْ في تراب أيت سدرات الجبل (إيغيل)، وسيدي بويوسْف الذي بنى بدوره الزاوية المعروفة باسمه (أيت بُويوسْف) جنوب قبيلة أشراحيل الدادسية.

ولما أنهى سيدي الحاج دراسته عند العالم المذكور، انتشر صيته فطبق الآفاق وأظهر من الصلاح والشياخة ما جعل الناس يتبركون به وذلك بعد أن نال رضى شيخه. وهكذا فإن أبناءه إلى اليوم لا يتورعون في القيام بزيارة ضريح شيخ جدهم في منتصف شهر محرم من كل سنة تيمنا وتبركا به.

أما عن كيفية وصول سيدي الحاج أحمد إلى منطقة دادس واستقراره بها فتتلخص في كونه بعد اتمامه للدراسة عند شيخه المذكور، شد الرحلة إلى مدينة مراكش التي صادف وصوله إليها أن وجد الناس فيها في صراع بين مؤيد ومعارض لسلطان كان يدعى مولاي المهدي، وفي خضم ذلك الصراع، كان سيدي الحاج يردد العبارة التالية : "اللهم انصر هذا السلطان إذا كان قائما على العدل والاحسان، ولا تكن له وليا ولا نصيرا إذا كان قائما على الباطل، وقد سببت له هذه العبارة المتاعب إذ زج به في السجن، ولكن ذلك لم يزده إلا تشبثا بقولته تلك والتي ستؤدي به إلى مآل لن تحمد عقباه. ويتمثل ذلك

كانت لدينا إشارة تاريخية من الممكن أن تدلنا على هذا التاريخ، فهي غير كافية. فحسب الرواية الشفوية، فسيدي الحاج هذا، ظهر في الوقت الذي ظهر فيه سلطان بمدينة مراكش يدعى مولاي المهدي. ومن المعلوم أن سلاطين المغرب الذين تلقبوا بهذا الاسم كثيرون، فهناك مثلا إلى جانب المهدي بن تومرت الموحدي محمد المهدي الشيخ السعدي. ولهذا فمن الصعب جدا الحسم في هذه المسألة بشكل قطعي سيما وأننا لا نتوفر على معطيات أخرى جديدة تمكننا من معرفة هذا التاريخ.

في تعرض حياته وللخطر إذ تقرر إعدامه، إلا أن شيخه مولاي مَحمد أبلْقاسم هو الذي أنقذ حياته من الخطر في اللحظة المناسبة. وكما جاء في الرواية فإن السيد الحاج أحمد كان مسرورا حينما كاند اعدامه أن يكون وشيك الوقوع، وقد أثار ذلك استغراب أحد السجناء الذين سجنوا معه. فسأله هذا السجين عن عدم حيرته وتكدره أمام ما تقرر في مصيره، فرد عليه سيدي الحاج قائلا : "ما يجي دبّاح حتى يجي فتّاح"، وعنه ـ تقول الرواية ـ توارثت الأجيال هذه القولة الحكيمة، وفي تلك الأثناء لم يتردد السيد الحاج أحمد في مناداة شيخه مولاي مَحمد أبلقاسم الذي لبّى دعوته على الفور، فأنقذه من ذلك الموقف الحرج إذ أخذ بيده وأعانه في الوصول إلى منطقة دادس.

وحينما وصل السيد الحاج إلى منطقة دادس ـ تقول الرواية ـ صار يطوف بها طولا وعرضا إلى أن استقر به المقام في المكان المدعو أتْسْفالْ (في سافلة الوادي) وبه سيبني زاويته التي تعرف بنفس الاسم : وحينما قرر الاستقرار في هذا المكان ـ تقول الرواية ـ طلب من جميع الحيوانات المتوحشة الموجودة فيه أن تغادره (وكان ـ كما قيل ـ عبارة عن غابة صغيرة). وقد استجابت تلك الحيوانات كلها لندائه إلا أفعى أعمى واحدة، فسألها سيدي الحاج عن السبب الذي جعلها لم تلب نداءه، فأجابته قائلة بأنها أعمى ولديها أبناء صغار لا يمكن أن تفارقهم ولذلك يستحيل عليها مغادرة هذا المكان. وإصرارها على البقاء في هذا الموضع أدى به إلى الدخول معها في مفاوضات أدت إلى توقيع معاهدة الصداقة وحسن الجوار بينهما وبين أولادهما من بعدهما. وسيجرى بها العمل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومنذ أن تم

وإذا كان أهل زاوية أتْسْفالْ إلى الآن يعتبرون أنفسهم كمرابطين (إكُرَّامَنْ) وليس كشرفاء، فإن زوايتهم حظيت كما يبدو بعطف قبائل أيت سدرات وخاصة منهم فرقة أيت إحْيا الموجودة ضمن ترابهم. وقد منحوا لها الأراضي وكانوا يقدمون لها "الزيارات" في كثير من المناسبات.

توقيع هذه المعاهدة إلى اليوم بين الطرفين، فإن الأفاعي لا تلذغ أبناء سيدي الحاج في كل من زاويتي أتسفال، الزاوية الأولى لسيدي الحاج وزاوية أيت سيدي الحاج (أو زاوية البئر). وبالمقابل فإن الأفاعي تحظى عندهم بكل عناية وتقدير ولا يمسونها بسوء.

وإذا كان سيدي الحاج قد قضى حياته بزاوية أتسفال التي بناها فإنه مع ذلك لم يدفن فيها وإنما دفن - حسب الرواية - بزاوية أيت سيدي الحاج (زاوية البئر) التي ظهرت بعد وفاته. ويرجع ذلك كما هو معتقد إلى كون سيدي الحاج طلب من صديقه أيام الدراسة وهو سيدي بُويُوسْفْ أن ينقل هذا الأخير جثمانه على ظهر بغلة عائلة أيت القاضي بقصر الْحَرْطْ ويوجه تلك البغلة في اتجاه أسفل الوادي إلى أن تتوقف عن المسير ويدفنه في ذلك المكان. فكان ذلك سببا في ظهور زاوية سيدي الحاج (بنت زاوية أتسفال).

وهكذا ففي يوم من الأيام كان سيدي بويوسف يعمل في أحد بساتينه بدت له علامة من العلامات فتذكر وصية صديقه سيدي الحاج ميتا، وقام على الفور واستعار بغلة أيت القاضي عملا بوصية سيدي الحاج فحمل جثمانه عليها وقادها في اتجاه الجنوب إلى أن توقفت عن المسير عن طيب خاطرها ودفنه في ذلك المكان أي المكان الذي توجد به تلك الزاوية إلى الآن. وما أن توصل أبناء سيدي الحاج بهذا الخبر المفجع حتى جاءها البعض منهم فورا إلى ذلك المكان وحفروا به بئرا وأقاموا بجواره زاوية وضريحا لأبيهم. ولهذا السبب تسمى إضافة إلى زاوية سيدي الحاج زاوية البئر.

ومن مأثوراته أنه سيأتي "شريف غندور" (أين عظيم الشأن) إلى منطقة أيت احيا السدراتيين (بوادي دادس) وسيقطن بها بعد أو قبل تنصيب خيام بالمنطقة. وقيل أن الشريف المعني هو مولاي عبد المالك الذي هجر من زاوية إيمَاسِينْ في نهاية القرن التاسع عشر إلى منطقة أيت احيا وبنى بها الزاوية التي تعرف باسمه. أما الخيام المشار إليها فهي - حسب الرواية -

بيد أن زاوية أتْسْفالْ لم تكن وحدها الزاوية الموجودة بمنطقة وادي دادس، بل هناك زوايا أخرى كزاوية أيت باعمران وزاوية سيدي الحاج بنت زاوية أتْسْفال وزاوية سيدي بُويُوسْفْ ثم زاوية سيدي داوود الموجودة بأعالي وادي دادس وزاوية سيدي البغداد (تَيْنْزا أو تكْنْزَا) في دادس الأوسط، وزاوية سيدي مولود الموجودة ضمن تراب أيت أربعمائة السدراتيين. وإلى جانب هذا الصنف من الزوايا التي لا تعرف بالضبط طبيعة علاقتها بأهم الزوايا المغربية هناك زاويتان بالمنطقة تابعة للزاوية الناصرية وهي زاوية أيت سيدي الشيخ بأيت احيا السدراتيين وزاوية بناصر الموجودة على الضفة اليمنى لوادي دادس في تراب أيت أربعمائة السدراتيين وكل هذه الزوايا ظل تاريخها مغمورا إلى اليوم.

وما كانت هذه الزوايا كلها ـ كما يبدو ـ لتحظى بالأهمية التي كانت لزاوية أتْسْفال خلال القرن التاسع عشر لدى أهم الاتحاديات القبلية بالسفح الجنوبي للأطلس الكبير إلا لكونها تتوفر على موقع فريد أقل ما يمكن أن يوصف به أنه موقع يتوسط تراب هذه الاتحاديات إذ يوجد في منطقة عبور بين السفح الجنوبي للأطلس الكبير وجبل صاغرو الذي طالما احتدم النزاع حوله من طرف تلك القبائل نظرا لما يوفره لها من

الخيام التي نصبتها محلة السلطان مولاي الحسن بالمنطقة حين مرورها بوادي دادس قادمة من تافيلالت. (وفعلا توقفت تلك المحلة قرب قصر تِرِكْوْتْ الذي هو من أهم قصور أيت احيا السدراتيين بوادي دادس، (انظر حول توقف محلة السلطان الحسن الأول سنة 1893 بهذه المنطقة :

LINARES (Dr. F.), Voyage au Tafilalet avec S.M. Le Sultan Moulay Hassan en 1893 (Extrait du Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc n° III et IV 1932, p. 60).

إمكانيات الرعي. فهذه القبائل وإن كان البعض منها مستقرا فإنها لا تزال في غالبيتها، خلال القرن التاسع عشر، تعيش حياة النجعة، ولذلك كان لا بد لها من إطار جغرافي حيوي واسع تتحرك فيه بحثا عن كلإ ماشيتها[4] خاصة في فترات الجفاف الذي كثيرا ما تتعرض له هذه المناطق.

ومع ذلك، فإذا تمكنت هذه الزاوية خلال القرن التاشع عشر من أن توسع دائرة نفوذها ليخرج عن منطقة دادس ويمتد إلى المناطق المجاورة كأيت عطا وإيمغران، وإمْگونْ (امگونة) وأيت بُگمَّزْ وأيت سدرات (فرع درعة الأعلى)[5]، فإنها لم تستطع أن تظهر بالمظهر الذي ظهرت به زاوية كزاوية تامگروت الناصرية وغيرها من الزوايا المهمة بمغرب القرن التاسع عشر. فنفوذها ظل محصورا في هذه الواحات الجنوبية.ومما لا شك فيه أو الوظائف التي كانت تقوم بها زاوية أتْسفالْ لدى قبائل المنطقة التي توجد بين ظهرانيها لا تخرج عن نطاق الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها الزوايا المغربية من إصلاح ذات البين وإيواء المسافرين وما إلى ذلك.

غير أن بروز زاوية أتْسفالْ كأهم زاوية بمنطقة دادس خلال القرن التاسع عشر كان آنيا، فلم تغرب شمس هذا القرن حتى أفل نجمها، لا لشيء إلا لكون زاوية جديدة ظهرت بمكان غير بعيد عنها، وهذه الزاوية الجديدة بناها مولاي عبد المالك

---

4) انظر الوثائق المنشورة مع هذا التقديم وبالخصوص الوثيقة رقم 1 و2.

5) كانت خيام وقطعان ماشية رحل من إيمغران وأيت سدرات بجبل صاغرو من بين ما شاهده دو فوكو حين مروره بهذا الجبل عام 1884 وهو في طريقه من وادي درعة إلى وادي دادس (انظر : .

DE FOUCAULD (Ch.), Reconnaissance au Maroc (1883-1884), Paris, Ed. CHALLAMEL, 1988, p. 213.

فسميت باسمه[6]، وقد عانت زاوية أتسفالْ من هذه الزاوية الجديدة ما عانت من منافسة في مجال نفوذها الروحي والمادي سيما وأن مولاي عبد المالك شريف بومسهول، أظهر في الشياخة والصلاح والزهد ـ كما يبدو ـ ما لم يستطع أحد غيره أن يظهره مما جعله يحظى بعناية قبائل أيت إحْيا السدراتيين الذين سمحوا له ببناء زاويته فوق ترابهم. وسرعان ما امتدت سلطته الروحية على منطقة دادس بأكملها. وقد تم ذلك في وقت لم يكن بزاوية أتْسْفال من يستطيع منافسته. وكان طبيعيا والحالة هذه أن يتقلص دور هذه الزاوية شيئا فشيئا لفائدة الزاوية الجديدة، ليصبح تقريبا في الوقت الحالي منعدما، ويشكل ظهور هذه الزاوية الجديدة في منطقة دادس أهم الأحداث السياسية التي عرفتها هذه المنطقة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أي قبل أن تصل إليها سلطة الگلاويين بشكل مكثف ما بين 1920 و1930 وهي معززة من طرف القوات الاستعمارية الفرنسية.

ومما يدل على أهمية هذه الزاوية الجديدة بالمنطقة أن الأگلاوي قام بمجرد وصوله إليها، بإلقاء القبض على مؤسسها مولاي عبد المالك فسجنه بمراكش مدة عامين ونصف.

---

6) تبعد هذه الزاوية عن زاوية أتسفال بأربعة كيلو مترات تقريبا، وقد بناها مولاي عبد المالك الذي رحل من زاوية إيماسين في ظروف غامضة، وحسب وثيقة نتوفر عليها فإن ذلك البناء تم حوالي 1310 هـ / 1892 م وهذا التاريخ يمكن أن يكون صحيحا، ذلك أنه إلى حدود سنة 1884 أي السنة التي مر فيها دو فوكو بهذه المنطقة لم تظهر بعد هذه الزاوية بحيث لم يذكرها على الخريطة التي وضعها عن قصور المنطقة (راجع دو فوكو)،

FOUCAULD (Ch. de), Reconnaissance au Maroc, Atlas, CHALLAMEL, Paris, 1888, Feuille 15, Echelle 1 : 250.000.

الوثيقة 1 : «كفالة» قبائل أيت عطا وايمغران وأيت سدرات لفائدة مرابطي زاوية أتْسْفالْ سنة 1216 هـ / 1800.

«الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة إلا بالله

ليعلم الواقف على هذا الكتاب المبارك أن أعيان قبيلة بني عطا الواردين على مولانا سليمان نصره الله بفاس عمره الله بالمسلمين تكلفوا بجميعهم لكافة المرابطين أولاد [الوالي] الصالح القطب الواضح سيدي الحاج بن أحمد مشهور بواد دادس نفعنا الله ببركاته وكاتب الأوامر الشريفة سيدي أحمد بن علي النسب بما نهب لهم من بهائمهم في جمي[ع] البلدان الذين يتحركون به بني عطة مثل درعة ونواحيها وتفيلالت وأحوازها وجبل أيت عتاب وصغرو وتدغة وطريقها وكل موضع كانت فيه بني عطة سواء بعيد أو قريب فقد كسوا في مزراقهم بهائمهم بغال وحمار وخيل وبقر وغنم ورقابهم وأرضهم لا يغصبه أحد وأشجارهم ومياه فكل من تعد عليهم من بني عطا أو غيرهم منهم مثل أولاد احيا الساكنين بدرعة يغرموا لهم المتكلفين جميع ما ضاع سواء قل أو جل والمتكلفين بهذا كله هم الشيخ سعيد بن احسين أقوش من أيت عيسى وإبراهيم والشيخ أحسين بن علي النسب والشيخ محمد المكنى اخبازوا... الشيخ محمد بن إبراهيم اشري الولالي والشيخ عمر السفولي والشيخ يوس[ف] النسب والشيخ علي بن سعيد من أيت اكن والشيخ محمد إبراه(يم) البكنيفني وحم نيت محمد الوزيني الولالي وأحمد نيت الغاز النسب وأحمد بن سعيد ولد الشيخ سعيد بن علي أقوش ومحمد بن داوود وحم بن إبراهيم وأود... وسعيد بن حم واش ومحمد بن إبراهيم وأحسين بن محمد وعمر بن علي

وإبراهيم نيت بمج وعلي بن حم وأحمد بن حم واش بلحلت وثم يعقو[ب] وأحسين بن داوود والشيخ عمر المش والشيخ محمد ابلمر الولالي والشيخ الولالي من أيت علي بن يوسف وعلي ومحمد بن علي اسلل وسعيد بن كبط والشيخ الولالي وعدد المتكفلين تسعة وعشرين فمن مات من المذكورين أعلاه يقوم ولده موضع أباه أو أخاه ما تناسلوا شهدوا بذلك على أنفسهم برضاهم وقصدهم في ذلك وجه الله تعالى ومحبتهم في جدهم المرابطين سيدي الحاج قدس الله روحه في الجنان والله لا يضيع أجر من أحسن عملا عرف قدره شهد عليه بما فيه وهما بحال الصحة والطوع والجواز وبتاريخ أول ذي الحجة الحرام متم عام ستة عشر ومائتين وألف عبيد ربه تعالى أحمد بن علي الدادسي وفقه الله وعبد ربه سبحانه محمد بن منصور من أيت لحسن أجن وعبد ربه سبحنه عبد الكريم بن محمد من ذرية سيد الحاج غفر الله بمنه آمين وعبد ربه تعالى علي بن أحمد الجدكي عفر الله بمنه آمين وكل من ادعى عليهم بشيء يفاصلونه بالشريعة النبي صلى الله عليه.

الحمد لله وحده ولما فرغنا من كفالة بني عطة حضر لدينا الطالب لحسن بن سعيد التندتي الزكراوي المغراني وابن عمه الشيخ لحسن نيت سيدي أحمد النسب والشيخ التغزاتي الزكراوي والشيخ نيت الهراوي من أيت أسكا والشيخ علي بن اش الزغاري والطالب محمد نيت حمزا الزغاري والشيخ منصور بن الحاج اليتفاوي المكشودي تكفلوا بجميع ما تكفل به بني عطة من تراب مغران كله جبلها وسهلها ووعرها عرف قدره شهد عليهم بما فيه وهما بحال الصحة والطوع والـ[جواز] وبتاريخ ما رسم أعلاه عبيد ربه تعالى أحمد بن علي الدادسي وفقه الله بمنه [وعبد ربه غفر الله بمنه آمين].

وتكفل أيت ازين للمرابطين أعلاه بجميعهم ونخص منهم الشيخ... والشيخ...

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ليعلم الواقف على هذا الكتاب المبارك أن أعيان قبيلة بني سدرات أنهم تكفلوا للمرابطين أولاد السيد الحاج محمد الددسي بِمَزَرِكِيهِمْ كل من تعرض لهم بالنهب وغيره يردون ما نهبوه لهم فأول من تكفل لهم أيت حم ابن سعيد الشيخ يوسف نيت خام والشيخ الحسين نيت حمرردن وجماعتهم وأيت سعيد بن داوود والشيخ علي بن لحسن والشيخ محمد كزن وجماعتهم أيت أشوا والشيخ لحسن بن هم تكفل بجامع أيت وفي والشيخ على بُوْقدرْ تكفل بإشْحِحْنْ بني وفي والشيخ القبلة نيت بوقدر ومع خى حْمَدْ والشيخ حموا نيت لحسن وهَمّوا گعْزيز الغز نيت يكْنْ والشيخ إبراهيم بُهْتَيْنْ وأيت علي بن احْسيْنْ ويدرْبُيقماتْ والشيخ لحسن نيت تَرْك والشيخ محمد بن علي أمزّدُرْ والشيخ الشد بني حم بني واح والشيخ حم بن محمد نيت موسى والشيخ حميد نبررين بني لحسن أداود وبني عيسى علي نيت لحسن والشيخ ابن يدر وبني مسكور وأيت عرب والشيخ يوسف خى احسين والشيخ محمد نيت علي ابتحمرت فمن مات من المذكورين أعلاه يقوم أولاده مقامه ما تناسلوا حتى يرث الله الأرض والتاريخ حوله عبيد ربه محمد بن لمسعود وفقه الله وعبد ربه محمد بن الحسن الدادسي وعبيد ربه اعْلِي بن الحسن الوزگيتي.

وكل من ادعى عليهم بشيء يفاصله بالشريعة الله ورسوله المطهر والسلام».

الشطر الأخير من الوثيقة أضيف بخط مغاير سنة 1281 هـ / 1864م .

«الحمد لله وحده أشهدوا علينا وعلى أنفسهم وهما أيت بُوقدور بني سدرت ثم الوفيين أنهم تكفلوا للمرابط أولاد سيد الحاج أحمد نفعني الله ببركتهم وهو السيد المداني بني إبراهيم ولد السيد أحمد ادسي في بلد ودسفل من تعرض له في جهات أيت سدرت فيما جاء في جهتهم فأول منهم أحمد أعدي ومحمد الحسن والحسين نيت عبوا وكلهم أيت بوقدور وأخيهم علي أشوا تكفلوا للسيد المداني المذكور مع أولاده وأولاد أولاده وهذا ما شهد عليه ونقلنه على توديتهم وأدتهم عرفوا قدرهم وهما بحال كمل وبتاريخه عام 1281 عبد ربه تعلى لحسن بن محمد بتحلا لتلتى (؟) كن الله به آمين أربعة عشر يوما من ذوا الحج».

الوثيقة رقم 2 : (التزام قبيلة امگونة (فرع أيت مْراوْ) لصالح مرابطي واد أتْسْفال سنة 1281 هـ / 1864 م).

«الحمد لله وحده

أشهد على نفسه أحمد بن لحسن يتيم على نيت مُخْ لامْراوي لمجوني أنه تكفل وضامن جامع ضرار المجونة من بني عيسي إلى أُزِغِمْتْ للمرابطين أولاد السيد الحاج حمد كالسيد المداني وأولاده واخوانه وأولاد عمه كالسيد أبو بكر بن أحمد والسيد علي بن أحمد وأولادهم ومالهم وأعبيدهم وغنمهم وابيلهم ودراريهم القطنين بواد أسفل وغيرهم والحاضرين والغائبين وكلما نهبت لهم فهو يكفل به أجداده وعمه بالنهب وغيره يردوه لهم وجامع من هو له قدرة من القبائل كبكمز

وغيره بالحيا وسيفه والمراد أنهم كانهم هو سند إلى الله ونبيه وهو كربته من تعد عليهم من ما ذكرت ينصفه بعرفهم هذا ما وجد في الرسم أجدادهم وأجداد أجدادهم ما تناسلوا وامتد فروعهم إلى أن يرث الله الأرض وهو خير الوارثين وهذا ما شهدوا به وبتاريخ وسط ذو الحجة عام 1281 عبيد ربه سبحانه أحمد بن محمود الترجوتي لطف الله به آمين.

استدرك المبيض نسا حتى أضاع اسمه سبحان الذي لا ينسى والسيد أحمد بن سيدنا محمود فهو الشهيد عليه المكفل والمبيض له أبو بكر بن أحمد كما رسم في الطبع الموضع هنا الله وليه بمنه اقتدى أبو بكر بن أحمد بني أبي حج الله وليه آمين إمام بني أجمت في وقته.

وبمثله يقول عبيد ربه سبحانه عبد الرحمن بن محمود بن محمد ترجوتي لطف الله به أمين».

الوثيقة رقم 3 : (نزاع بين مرابطين من زاوية أتسفال حول دين) 1288 هـ/ 1871 م.

«الحمد لله وحده

أشهدت جماعة آل الصور بتدلى بني ووزگة أنهم حضروا بين الاخوين المرابطين بزاوية واد أسْفَالْ في بلاد أيت احيا في بلاد أيت سدرت في بلاد دادس وهما السيد المدني بن إبراهيم وأخيه السيد الحسن بن إبراهيم بموضع المذكور حتى وقعت المحاشنة والمخاصمة بينهما حتى لا يقدرون لهم الجماعة المذكورة بما يفاصلهما وشهدت جماعة المذكورة بشهادتهم لله اليوم في الدنيا وغذا في الآخرة لا رب غيره ولا معبود سواه لأن سيد المدني بن إبراهيم بزاوية المذكورة برح وعيط واسترعا على

أخيه السيد الحسن أن يقدم معه إلى بلادهما أن يفاصل مع أصحب الدين، وهم امحمد بن سالم خمسة قناطير من مدينة مراكش وصرفت بأربعة قناطير في بلاد دادس بميزان الحدادين فأبى السيد الحسن أن يقدم معه ومنع له القدوم واسترعى عليه أيضا أن لم تقدم معانا أن تفاصيل دينك لأن بغلك يبيعه بما أمكن ولم تكن على عدته طال الزمان أم قصر فمن شهد بذلك وحضر به الطالب محمد بن الحسن أطلح وابن عمه الفقير محمد بن الحسن أطلح ومحمد بن الحسن لغرز وإبراهيم بن عبد الله أطلح والفقير أحمد بن حم بني امبرك والشاب الحسن اعبس به عرف والسيد عبد الرحمن بن حم اعدى وأخيه عبد الله بن حم اعدى ومحمد بن عمر وحمد بن عمر نيت عمر والحسن بن حمادي امغر محمد بن محمد نيت علي بن رح، وهذا ما شهدوا به لدى الشهود المذكورين ونقله من عرفهم عافيا وهو في حال الصاحة وطوع وجواز وبتاريخ شهر الله ربيع الثاني عام 1288 عبد ربه سبحانه محمد بن علي أطلح لطف الله به آمين وعبد ربه سبحانه علي لودي بن محمد زمرني لطف الله به آمين».

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

الخط المرسوم بمقلوبه خط السيد محمد بن علي الطلحوي بالصور بواد تديلي السيد علي بن أحمد وزگيته وكذا عاطفه السيد بالمحل المذكور قاله عارفهما بلا شك ولا ريب عبيد ربه حميد بن سعيد البُيُوسْفي وفقه الله بمنه آمين».

«الحمد لله وحده الرسم المسطر حوله صحيح وكذلك التعريف المسطر أعلاه صحيحة والله أعلم وكتب أحمد بن محمد وفقه وعبد ربه سبحانه إبراهيم بن أحمد الحسني التِّمِشّاء لطف الله به آمين».

«الحمد لله

يجب شرعا غرم ديون الفار من الغرماء فإذا غرمهم أخوه بثمن بغله حيث باعه فقد فعل صوابا ولا يواخذ بكده وتغرده وقال الفاسي في عمله ما نصه ولا يواخذ بذنب الغير في كل شرع من قديم الدهر إلا إذا سدت به الذريعة أو خيف شرع الخ. وعليه فلا يلزم مسكه السيد المدني تغرد بغل أخيه السيد لحسن حيث باعه على ديونه كونه أخذوه الغرماء من أخيه المذكور وكتبه حجة شرعية لسائله عبد ربه علي بن أحمد الزكراوي لطف الله به».

«الحمد لله

حيث ثبت ما ذكر بمحوله والقرار والهروب لأرباب الديون فما فعلوه من النهب فهو حقا لهم فعلوه لأنه ظالم أحق أن يحمل عليه وهو المأخو(ذ) ومفهوم قو(ل) العلميات ولاي يواخذ أحد بذنب الغير وكذا في قوله تعالى : **«ولا تزر وَازِرَةٌ وزر أخرى»** وقد نص عليه ابن هلال في المتن الثمين ولا شيء له في كد البغل مطلقا فإن لهم شبهة وكذا على المشتري وإما من جهة صحة البيع فلا بد والتسويق حتى يقف على الثمن وكتبه محمد بن محمد اليزيد الناصري».

الوثيقة رقم 4 : (منح صدقة لأحد مرابطي زاوية أتسفال سنة 1247 هـ / 1831م)

«الحمد لله وحده

أشهدنا وعلى نفسه خيا محمد بن حدوا نايت أسعيد الشيخ بأغيغ الفقاني شهد الطوع والرضى منه أنه تصدق على نجيب

أولاد المرابط السيد الحاج إبراهيم بن أعلى الدادسي من ذرية سيد الحاج القاطن بأتسفال بغرم الجناية الذي اشترى عنده في بلد تزنگجدر وهو خمسة أعشر من قبل المخزن وغيره طول الزمان أم قصر صدقة صحيحة تامة ثبتة قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه (الجسيم) والله لا يضيع أجر من أحسن عملا بطيب نفسه زعما لا كرها وقبل منه له المتصدقين قبولا تاما بحضور شهوده خا (هَمّوا) نايت لحسين الأجمتي ولمقدم بْرَهِمْ نايت الحاج الترجوتي شهد عليهما بذلك من أشهدوه به وعرفهما بحال كمال بتريخ أول ذو الحجة عام 1247 عبيد ربه سبحانه محمد التهامي بن محمد المكي الدرعي ملزم مسجد أيت اجمت غفر الله له آمين استدرك بموقفه ابنه اسْعِدْ بن محمد صح به مكرر اسمه محمد المذكور غفر الله له أمين».

زاوية أتسفال بوادي دادس أيام السلطان

سيدي محمد بن عبد الرحمان*

تطرقت في مقال منشور في العدد السادس من مجلة دار النيابة سنة 1985، إلى الأهمية التاريخية التي كانت لزاوية أتْسْفالْ بوادي دادس. وقد أكدت في نفس المقال أن هذه الزاوية هي واحدة من تلك الزوايا العديدة التي قامت في كثير من الأماكن بالجنوب المغربي وظل تاريخها مغمورا، وهذه الزوايا كثيرا ما كانت "تظهر في ظروف تاريخية معينة، فيتوسع نفوذها الروحي والمادي برهة من الزمن وذلك تبعا لظروف محلية ـ كثيرا ما تظل هي الأخرى مجهولة ـ ليتقلص في النهاية ويصبح غير ذي أهمية".

ودون أن أعود إلى ما تناولته بالدراسة في المقال سابق الذكر من قضايا تتعلق بدلالة اسم زاوية أَتْسْفَالْ أو وَاتْسْفَالْ وتاريخ تأسيسها ومؤسسيها. أكتفي هنا بالوقوف عند مسألة توطينها لأنها في نظري تجعلنا ندرك بما فيه الكفاية مدى الأهمية التاريخية التي كانت لهذه الزاوية في دير السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط. وهذه الزاوية تقع على الضفة اليمنى لوادي دادس جنوبي نقطة التقاء هذا الأخير برافده واد امگون في تراب قبائل أيت سدرات الوادي.

---

* بحث منشور ضمن أعمال الدورة السادسة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية *"السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان"*، مركز الدراسات والبحوث العلوية ـ الريصاني، دار المناهل للطباعة والنشر (وزارة الشؤون الثقافية) (ب. ت)، ص. 241 ـ ص. 251.

وهذا الموقع هو ذو أهمية كبرى لاعتبارات جغرافية واقتصادية وبشرية.

وفعلا فهذه المنطقة تعتبر منطقة انتقال بين الأطلس الكبير الأوسط الغربي وجبل صاغرو، يخترقها واد دادس الذي يعتبر من أهم الأودية بالسفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط نتيجة استفادته من مياه رافده الأساسي الذي لا تنضب مياهه واد امگون المشار إليه أعلاه. إذن فتوفر المياه "بغزارة" بهذه المنطقة جعل الاستقرار بها ممكنا مما أدى إلى تنمية محاط زراعي سقوي مهم نسبيا على ضفاف هذين الواديين. أما خارج هذا المحاط الزراعي فتمتد أراضي شاسعة كانت القبائل تستغلها كمراعي لرعي ماشيتها. وإضافة إلى ذلك، فعبرها كان الرحل يمرون من وإلى الأطلس الكبير الأوسط الغربي وجبل صاغرو.

وموقع هذه المنطقة بين هذه الجبلين (أي الأطلس الكبير الأوسط وجبل صاغرو) جعلها عبارة عن مضيق طويل بمحاذاتها في اتجاه الشرق يضيق ويتسع حسب الأماكن، ولذلك فمنطقة دادس هي منطقة عبور كانت تخترقها وتلتقي فيها الطرق والروافد التجارية التي كانت تأتي من وإلى تافيلالت في اتجاه مراكش أو في اتجاه درعة وسوس.

وفي نظري تشكل المعطيات سالفة الذكر مفاتيح أساسية لفهم جوانب مختلفة من تاريخ هذه المنطقة وخاصة منها ما يتعلق باستقرار ساكنة مهمة بها تنتمي إلى قبائل كبرى ذات الثقل التاريخي المهم كأيت سدرات، إمگون (امگونة)، أيت عطا وإيمغران (مغرانة). وإذا لم يتسع المقام هنا لدراسة تاريخ استقرار مختلف هذه القبائل بهذه المنطقة فإنني أكتفي بالإشارة إلى أن أي واحدة منها لم تتأت لها السيطرة كليا على

المنطقة، ولذلك تباينت أهمية الأجزاء التي تمكنت كل واحدة منها من مراقبتها. وهكذا يبدو واضحا أن أهمية هذه المنطقة من الناحية السياسية لا تقل أهمية عن الناحية الجغرافية والبشرية.

وما يثير الانتباه أيضا بالنسبة لموقع أَتْسْفَالْ هو قربها من زاوية أخرى هي زاوية إِيمَاسِينْ التي تقع هي الأخرى على نفس الضفة لنفس الوادي على بعد بضعة كيلومترات منها في اتجاه الغرب، ومعلوم أن زاوية إيماسينْ كان لها دور سياسي مهم أيام السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام لدى بعض قبائل هذه الناحية وخاصة منها قبائل إيمغران. وقد تناولت هذا الموضوع بالدراسة في المداخلة التي شاركت بها في أعمال الدورة الخامسة لجامعة مولاي علي الشريف العتيدة خلال السنة الماضية.

وبعد هذا التمهيد سأحاول الآن أن أرسم - قدر الإمكان - نبذة تاريخية عن زاوية أتسفال انطلاقا من وثائق مكتوبة كنت قد اطلعت عليها منذ عدة سنوات عند أحد أعيانها وهو المرحوم سيدي محمد بن المدني، وهذه الوثائق لا يتعدى عددها العشرة، وباستثناء وثيقة واحدة منها تحمل تاريخ 1216 هـ / 1800 م فإن بقيتها تغطي فترة مهمة من عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إذ تمتد من سنة 1278 هـ / 1861 م إلى سنة 1288 هـ / 1871 م. وعلى الرغم من عددها القليل فإن هذه الوثائق تشير قضايا مختلفة الأهمية منها ما يتعلق بعلاقة الزاوية بالسلطة المركزية أو بالقبائل أو بالدور الذي كان لها في الحياة الاقتصادية بالمنطقة وكذا طبيعة ممتلكاتها.

1 ـ علاقة الزاوية بالدولة العلوية وبقبائل السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط :

تكشف إحدى هذه الوثائق أن زاوية أتسفال كانت على صلة وثيقة بالدولة العلوية خاصة منذ عهد السلطان مولاي سليمان.

ويظهر أنها حظيت بعطف وثقة هذا السلطان بدليل أن وثيقة التزام قبيلتي أيت عطا وإيمغران باحترام وضمان سلامة وأمن المرابطين الذين هم من سلالة المولى سيدي أحمد بن الحاج بدادس ـ بمن فيهم مرابطو زاوية أتسفال ـ كتبت بفاس من طرف "كاتب الأوامر الشريفة" أحمد بن علي الدادسي الذي ليس مستبعدا أن يكون أصله إما من زاوية أتسفال أو من بنتها زاوية سيدي الحاج التي تعرف أيضا بزاوية البئر. وهي زاوية تقع على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط. ومما جاء في مقدمة نفس الوثيقة بهذا الصدد بعد الحمدلة والتصلية : "أن عيان قبيلة بني عطا الواردين على مولانا سليمان نصره الله بفاس عمره الله بالمسلمين تكفلوا بجميعهم لكافة المرابطين أولاد [الولي] الصالح القطب الواضح سيدي الحاج بن أحمد مشهور بواد دادس نفعنا الله ببركاته [ءامين] وكاتب الأوامر الشريفة سيدي أحمد بن علي النسب بما هنب لهم من بهائمهم في البلدان الذين يتحركون به بني عطة مثل درعة ونواحيها وتافيلالت وأحوازها وجبل أيت عتاب وصغرو وتدغة وطريقها وكل موضع كانت فيه بني عطة سواء بعيد أو قريب فقد كسوا في مزارقهم بهائمهم...". وتتضمن هذه الوثيقة في الأخير أسماء شيوخ أيت عطا الذين قدموا إلى حضرة السلطان مولاي سليمان بفاس سنة 1261 هـ / 1800 م. وقد أخذوا على عاتقهم ضمان ما ورد في هذا الالتزام، وحسب نفس الوثيقة فإن عدد هؤلاء المتكفلين هو تسعة وعشرون شيخا.

وتتضمن نفس الوثيقة التزاما آخر - يأتي بعد الالتزام الأول - هو أيضا لفائدة نفس المرابطين ويتعلق الأمر بالتزام شيوخ قبيلة إيمغران بما التزم به أيت عطا. ويبدو أن هؤلاء الشيوخ هم بدورهم وردوا على السلطان مولاي سليمان بفاس في نفس التاريخ الذي ورد فيه عليه أشياخ أيت عطا المعنيين بالالتزام سالف الذكر. وهذا ما يفهم من سياق هذه الوثيقة التي جاء فيها بعد الحمدلة ما يلي : "ولما فرغنا من كفالة بني عطة حضر لدينا الطالب لحسن بن سعيد التندتي الزكراوي المغرني وابن عمه الشيخ لحسن نيت سيدي أحمد النسب والشيخ احسين التغزتي الزكراوي والشيخ محمد نيت الهراوي من أيت أسكا والشيخ علي بزاش الزغاري والطالب محمد نيت حمزا الزغاري والشيخ منصور بن الحاج اليتفاوي المكشودي تكفلوا بجميع ما تكفل به بني عطة في تراب مغران كله جبلها وسهلها ووعرها...". وهذا الالتزام هو أيضا من إنشاء نفس الكاتب الذي هو السيد أحمد بن علي الدادسي كاتب الأوامر الشريفة كما سماه الالتزام الأول بذلك.

وأُضِيفَ إلى هذين الالتزامين التزامان أخران تم نسخهما من طرف ناسخَيْن مختلفيْن ثبّت كل واحد منهما اسمه في الأخير. وهكذاً فبمقتضى الالتزام الأول فإن بعض شيوخ أيت سدرات الجبل ممن ذكرت أسماؤهم يلتزمون باحترام وحماية المرابطين الذين هم من عقب الولي سيدي أحمد بن الحاج الدادسي. وجدير بالذكر أن عدد الشيوخ الضامنين له يفوق خمسة عشر شيخا. ويبدو أن تاريخ هذا الالتزام يعود إلى نفس التاريخ الذي يحمله الالتزام الثاني الذي يليه والذي هو رابع عشر من شهر ذي الحجة عام 1281 هـ/ 1864 م. وهذا ما يفهم من العبارة الأخيرة منه، وهذه العبارة هي : (التاريخ حوله).

أما بالنسبة للالتزام المؤرخ في 14 ذو الحجة عام 1281 هـ / 1864 والذي يأتي مباشرة بعد التزام بعض شيوخ أيت سدرات تجاه أبناء سيدي الحاج أحمد الدادسي، فهو من نسخ الفقيه السيد لحسن بن محمد التلتي. وبموجب هذا الالتزام تتعهد قبيلة أيت بُوقْدُورْ ممثلة في شيوخها بما التزمت به القبائل سالفة الذكر (أيت عطا، إيمغران وأيت سدرات...) وقبيلة أيت بوقدور هي فرع من قبائل أيت سدرات الذين تنتشر قصورهم في المضايق العليا لوادي دادس، وانتشارها هناك جعلها تراقب مكانا استراتيجيا كان يضمن المرور من وإلى دادس في اتجاه أماكن الرعي بالأطلس الكبير مرورا عبر منطقة مْسَمْرِيرْ.

وهناك وثيقة أخرى مؤرخة في سنة 1278 هـ / 1261 م تتعلق بتعهد شيخ قصر إمِضْرْ الذي كان ولايزال أحد القصور المهمة ضمن قصور أيت عطا، بحماية المرابط السيد المداني وإخوانه "من موضع واد أسفل"، وحسب ما جاء في هذا التعهد فإن حماية هذا الشيخ لنفس المرابط وإخوانه (من أهل الزاوية) هي في حد ذاتها تعني حماية أيت عطا كلهم للمعنيين بهذه الحماية، إلا ما كان من عظم أيت ولال، فهل يعني ذلك أن هذا العظم كان في نزاع مع بقية عظام أيت عطا في ذلك الوقت ؟ أم لسبب آخر ؟ لا ندري.

ومهما يكن من أمر، فلا تخفى أهمية هذا الالتزام بالنظر إلى المكانة السياسية المهمة التي كانت لقصر إيميضْرْ لدى قبيلة أيت عطا عامة ولدى عظم أيت بُويْكْنيفْنْ خاصة، وبالإضافة إلى ذلك فموقعه الجغرافي هو الآخر من الأهمية بمكان إذ عبره كانت تمر الطريق الرابط بين بومالن دادس وتنغير (تودغة) والذي كان منطلقه مراكش في اتجاه تافيلالت. واسم

إيـمـيـضـر أو إيـمـتـر (حـسب اخـتـلاف النطق) الذي يـحـمـلـه هذا القـصـر مـعـنـاه المكان المحـروس أو المراقـب. وفـعـلا فـهـذا الـقـصـر يراقب من جـهـة هذا الـطـريـق الـعـام، ومـن جـهـة أخـرى مـنـجـم الفضـة القـريـب مـنـه والـذي يـسـمـى بـنـفـس الاسـم (أي مـنـجـم إيـمِـيـضـْرْ). وكـمـا هـو مـعـروف فـقـد لعب هذا المنجـم ـ ولا يـزال ـ دورا مـهـمـا في الاقـتـصـاد المغـربـي مـنذ العـهـد الإدريـسـي إلى الـيـوم.

وإلى جانب الـوثـائق الـتـي عـرضـتـهـا آنـفـا هناك وثـيـقـة أخـرى تـتـعـلق بـنـفـس المـوضـوع وتـتـضـمـن «تكفل» وحـمـايـة قـبـيـلة إمگون (أي امـگـونـة) لمرابـطـي زاويـة أتـسـفـال. وهـي مـؤرخـة فـي مـنـتـصـف شـهـر ذي الحـجـة مـن سـنـة 1281 هـ / 1864 م.

وهـذه الحـمـايـة تـعـهـد بـاحـتـرامـهـا أحـد أعـيـان قـصـر أَيْـتْ مْـرَاوْ الـواقـع فـي أعـالـي وادي امـگـون. ويـبـدو مـن خـلال مـا ورد فـي نـفـس الـتـعـهـد أن ضـامـنـه كـان لـه نـفـوذ وتـأثـيـر عـلـى قـبـائـل أخـرى مـثـل قـبـائـل أيـت بُـوگـمّـزْ وبـإمـكـانـه الـتـدخـل لـديـهـا لـصـالـح زاويـة أتـسـفـال كـلـمـا لـحـقـهـا ضـرر مـن جـانـب هـذه الـقـبـائـل، وممـا ورد فـيـه بـعـد الحـمـدلـة : «أشـهـد عـلـى نـفـسـه أحـمـد بـن لحـسـن يـتـيـم عـلـى نـيـت مـع لامْـرَاوِي لَـمـجُـونـي أنـه تـكـفـل وضـامـن جـامـع ضـرار امْـجُـونـة مـن بـنـي عـيـسـي إلـى أُزِغـِمْـتْ لـلـمـرابـطـيـن أولاد الـسـيـد الحـاج حـمـد كـالـسـيـد المـدانـي وأولاده وأولاد عـمـه كـالـسـيـد أبـو بـكـر بـن أحـمـد والـسـيـد عـلـي بـن أحـمـد وأولادهـم ومـالـهـم وعـبـيـدهـم وغـنـمـهـم وإبـيـلـهـم ودوابـهـم الـقـاطـنـيـن بـواد أسـفـل وغـيـرهـم والحـاضـريـن والـغـائـبـيـن وكـلـمـا نـاسـبـت لـهـم فـهـو يـكـفـل بـه كـمـا كـفـل بـه أجـداده وعـمـه بـالـنـهـب وغـيـره يـردوه لـهـم وجـامـع مـن هـو لـه قـدرة مـن الـقـبـائـل كـبـگـمـز وغـيـره بـالحـيـاء وسـيـفـه والمـراد أنـهـم كـأنـهـم هـو مـسـنـد إلـى الـلـه ونـبـيـه وهـو قـربـتـه مـن تـعـد عـلـيـهـم مـن مـا ذكـرت يـنـصـفـه بـعـرفـهـم

هذا ما وجد في الرسم أجدادهم وأجداد أجدادهم ما تناسلوا وأمد فروعهم إلى أن يرث الله الأرض وهو خير الوارثين وهذا ما شهد به وبتاريخ وسط ذو الحجة عام 1281 م عبيد ربه سبحانه أحمد بن محمود الترجوتي لطف الله به ءامين...».

2 ـ الدور التجاري لزاوية أتْسْفالْ

تُبَيِّنُ الوثائق القليلة التي أتيحت لنا فرصة اكتشافها أن بعض مرابطي زاوية أتسفال كانوا يقومون بالتجارة بين مراكش ودادس قبيل منتصف القرن التاسع عشر للميلاد وخلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الذي نعمت خلاله هذه المناطق بالاستقرار والأمن. وإذا كانت للالتزامات القبلية المختلفة سالفة الذكر أهمية، فإنها تكمن في ضمانها الحماية الضرورية لهؤلاء المرابطين للمرور بكل حرية.

ويبدو أن توفر حرية التنقل عبر أراضي مختلف هذه القبائل ربما كان عاملا من العوامل التي شجعت بعض مرابطي زاوية أتسفال على التعاطي للتجارة. وكان ممن برزوا في هذا الميدان خلال نفس العهد السيد الحاج إبراهيم بن علي وابنه المدني بن إبراهيم وحفيده محمد بن المدني. فالأول تُعرِّفُنا بنشاطه التجاري وثيقة غير مؤرخة وهي مهمة جدا لما تفيدنا به من معلومات ـ قل نظيرها ـ تتعلق بطبيعة وأثمان بعض السلع التي كان يأتي بها التجار من مراكش إلى دادس. كما أنها مفيدة في معرفة المخاطر والصعوبات التي كانت تواجه التجارة والتجار من سرقة وقطع الطريق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهكذا فقد تم تحرير هذه الوثيقة بعد أن تعرض السيد الحاج إبراهيم الدادسي (مرابط زاوية أتسفال) للنهب من طرف بعض اللصوص بقبائل أيت مْگونْ وهو في

طريقه من مراكش إلى دادس مسقط رأسه. وقبائل أيت مگون تختلف عن قبائل إمْگونْ (امگونة). وأيت مْگونْ يوجدون شمالي السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط بين قبائل إيمغران (مغران) وأيت مْديوَالْ في اتجاه دمنات. وحسب ما ورد في وثيقة أخرى مؤرخة في الثامن من شهر ربيع الثاني سنة 1259 هـ / 1843 م، فإن المرابط الذي تعرض للسرقة استرد نقدا بعض مسروقاته بفضل تَدخُّل مرابط آخر لصالحه لدى الناهبين يبدو أنه كان له عليهم نفوذ. والمرابط الذي قام بهذا التدخل في هذه القضية هو السيد محمد بن عبد الرفيع من ذرية الولي الصالح السيد محمد بن يوسف الأفراوي بوادي درعة. ومما جاء في هذه الوثيقة بعد الحمدلة بخصوص هذا الموضوع ما يلي : «أشهدنا المرابط السيد محمد بن عبد الرفيع من ذرية الولي الصالح السيد محمد بن يوسف الأفراوي بواد درعة وابنه الحاج الكبير على أنفسهما أنهما أبرئا ماسكيه السيد الحاج إبراهيم ابن علي الدادسي من واد أسفل من جميع ما دفعا لهما من المال على أحمد بن محمد اليعقوبي ومن معه من قبيلة أيت مگون من قبل ما نهبوه له وضمنه له عنهم السيد محمد بن عبد الرفيع المذكور فاقتضى منه الآن جميع مائة وثمانية وثمانين مثقالا وعلى سبيلها أطلقه في ضمانة ما بقى وتبارؤوا في المدفوع إبراء كليا تاما...".

أما السيد المدني بن إبراهيم فقد ورد اسمه في وثيقة مؤرخة في ربيع الثاني عام 1288 هـ / 1871 م مؤداها أنه في هذا التاريخ وقع له خصام عنيف بقصر الصور بقبيلة تيديلي نايت واوْزْگِيتْ مع أخيه المسمى الحسن. وحسب ما ورد في نفس الوثيقة فإن سبب هذا النزاع هو دين كان بذمة هذا الأخير

لصالح شخص من دادس يدعى محمد بن سالم. ويفهم من معطيات نفس الوثيقة أن المرابط المدين كان فارا إلى هذه المناطق النائية. وقد تعقبه أخوه السيد المدني بن إبراهيم إلى هناك مشتعطفا إياه القدوم معه إلى دادس لأداء ذلك الدين الذي يظهر أنه كان قد أخذه وهو بمدينة مراكش، وهو ما يفهم من العبارة التالية : «خمسة قناطير من مدينة مراكش وصرفت بأربعة قناطر من بلاد دادس بميزان الحدادين». ويظهر أن هذا الدين تم تسديده بواسطة، بيع بغل المرابط المذكور من قبل أخيه السيد المدني، وهذا ما يستنبط من الفتوى المرفقة بهذه الوثيقة.

أما السيد محمد بن المدني فتتحدث عنه وثيقة مؤرخة في ثامن محرم عام 1284 / 1867 وهو قادم من مدينة مراكش ضمن قوافل تجارية دادسية توقفت في الطريق أثناء عودتها إلى دادس في مكان يعرف بزَرْكْطَنْ الذي كان محطة لنزول القوافل. وزَرْكْطَنْ قبيلة توجد شمالي قبائل گلاوة في السفح الشمالي للأطلس الكبير الغربي شرقي مراكش. وهذه الوثيقة تكتسي أهمية كبيرة لكونها تكشف عن وجود علاقات تجارية مهمة بين منطقة دادس ومدينة مراكش مما يدل على سيادة الأمن والطمأنينة بهذه المناطق الجنوبية خلال هذه الفترة. وما من شك أن هذه العلاقات من شأنها أن تساهم في تنشيط الاقتصاد المحلي بهذه المناطق. وإذا لم تتحدث هذه الوثيقة عن طبيعة السلع التي حملها التجار الدادسيون من مراكش إلى منطقتهم، فإن لها أهمية خاصة بالنسبة لمعرفة التنظيم الذي كانت تخضع له القوافل التجارية والمشاكل التي كانت تحدث لها أثناء الطريق من ضياع للسلع أو لوسائل النقل أو تعرضها لهجمات

اللصوص (كما سبق أن حدث للحاج إبراهيم قبل ذلك بعدة سنوات).

وقد جاء في نفس الوثيقة بعد الحمدلة والتصلية بخصوص هذا الموضوع ما يلي : «شاهده الموضوع اسمه عقب تاريخه يعرف المرابط السيد محمد بن المداني من ذرية سيدي الحاج الدادسي كمعرفته أيضا بحسين بن علي نيت العسري من بني ودّارْ السدراتي بوادي يحيى أتم المعرفة وأكملها بها ومعها يشهد أنه قدم معهما من مدينة مراكشة المحروسة مع جم غفير إلى أن وصلوا زركطن فأراد بعضهم بل أمر بعضهم بدخول البهائم لبعض الفنادق الكائنة هناك وامتنع منه البعض فلم يتفق رأيهم على الدخول للفندق. فنزلوا في بقعة بخارجه فضربوا القرعة للحراسة من يسبق إليها عند النوم وحيث والناس نائمون كما هو شأن القوافل وكانوا على مائدة واحدة بخمسة رجال فلما ضربت القرعة بينهم للحراسة صدقت في الأول (أي السيد محمد بن المداني الذي هو من زاوية أتسفال) أن يسبق إليها فاشتغلوا بالاصطلاح بإيقاد النار ومئونتهم وعلف بهائمهم وكثر الهرج عندهم وعند غيرهم من القوافل وعلقوا العمار للبهائم فقام رب الحراسة المذكور قبل نوم أهل القافلة وقبل تكميل البهائم الموالية الشاهد علموا بزعمه جهل علف بعضها والنار موقدة لدى كل واحد والناس محيطون بها فأحاط بالبهائم حينئذ وعدها فلم يلق بغل احسين المذكور فناداه ياحْسَيْن أين بغلك. فإني لم أره ولم يدخل في حراستي فقام ربه فلم يجده فمن علم الأمر كما ذكر وحققه كما سطر قيد شهادته إذ سئلت منه لسائلها من ثامن المحرم عام 1284 الفقير علي بن أحمد نيت إبراهيم واعلى بعلقمت مقدم طائفة أيت

سيدي الشيخ وقال فيه عدل رضى ونقل عنه بعد الاذن والاداء نقلا صحيحا كما يجب عبيد ربه تعالى محمد بن عبد العالي أمنه الله بمنه وعبيد ربه أبو بكر بن أحمد الله وليه ءامين». وأُضِيفَ تحته بخط مغاير : «الحمد لله أعلم بثبوته عبد ربه محمد ابن محمد اليزيد الناصري.

وبعد هذا نجد شهادة أخرى مكتوبة بنفس خط الشهادة السابقة ورد فيها بعد الحمدلة : «شهد محمد بن محمد نيت يش التلاتي بني يحّيا بمعرفته للمذكورين أعلاه وشهد أيضا شهادته لله أن البغل المتلوف المشار إليه أعلاه ذهب قبل نومه وقبل علف دابته وهو حاضر في القافلة مجاور لأرباب النازلة في النزول وقيدها لسائلها منه في تاريخ أعلاه وهو ممن يوثق به كما ذكر في الأول ونقل عنه عارفه محمد بنْ عبد العالي أمنه الله بمنه وعبيد ربه أبو بكر بن أحمد بني سيدي الحاج الله وليه ءامين». وزيدَ عليه بخط مغاير ما يلي : «الحمد لله أعلم بقبول الناقلين عبد ربه محمد بن محمد اليزيد الناصري» انتهى.

3 ـ ممتلكات زاوية أتسفال :

تنقصنا المعلومات حول ممتلكات زاوية أتسفال وكيفية تكوينها ومراحلها ونوعيتها وأهميتها. ولا نتوفر في هذا الباب إلا على وثيقتيْن بواسطتهما يمكننا أن نكوّن فكرة عن طبيعة تلك الممتلكات. الوثيقة الأولى مؤرخة في فاتح ذي الحجة عام 1247 هـ / 1831 م وتتحدث عن أرض فلاحية كان يستغلها شخص يدعى حدّو نايت سْعيدْ لفائدة الحاج إبراهيم بن علي، مرابط بزاوية أتسفال.

وهذه الأرض كانت مساحتها تبلغ خمسة أعْشَاراً جمعه

عِشْرْ وهو تصحيف لكلمة العُشُر العربية. والعِشْر هو وحدة قياسية محلية كانت ولا تزال تقاس بها الأراضي الفلاحية بدادس. وتقدر في وقتنا الحالي بأربعين متراً مربعا. والمتر الواحد منها يقال له أدْريمْ. ومهما يكن من أمر فالخمسة أعشار المتصدق بها هي مساحة مهمة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تقلص المجال الفلاحي بهذه المنطقة.

أما الوثيقة الثانية فهي مؤرخة في آخر رجب من سنة 1287 / 1870 وتتعلق بنزاع وقع بين المرابط السيد المدني بن إبراهيم ـ الذي سبقت الإشارة إليه عدة مرات في هذا البحث ـ وبعض عبيده الذين تنعتهم نفس لوثيقة بـ«الواصفين مسعود وإخوانه».

وإذا لم تحدد نفس الوثيقة أصل هذا النزاع فلا يستبعد أن يكون مرده هو وعد (ربما كان قد قطعه السيد إبراهيم بن المدني على نفسه إزاء خادمه، (واصفه في الوثيقة) وإخوانه) ولم يف به كمنحهم قطعة أرض لاستغلالها مباشرة لفائدتهم. وهناك في الوثيقة عبارة تجعلها نميل إلى فهم هذا المعنى. وهذه العبارة كان يخاطب بها المرابط المذكور خصمه مسعود وإخوانه وهي : «وخذوا عملكم إن أنتم ما رضيتم أن بلادنا حبوسا لا يجوز منها البيع ولا رهنا ولا هبة وغيره».

وما يمكن استخلاصه من العبارة السابقة هو أن أراضي زاوية أتسفال هي أراضي لا تباع ولا ترهن ولا تعطى بشكل من الأشكال وبتعبير آخر فهي أرض حبسية يجب المحافظة عليها دون مسها بأي تغيير كيفما كانت طبيعته.

وهكذا، وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول إجمالا إن عقارات

زاوية أتسفال تكَوّن جزء منها - يصعب تحديد أهميته - بفضل الصدقات التي كانت تمنح لها من طرف بعض سكان المنطقة بين الفينة والأخرى. وهذا لا ينفي وجود جزء أخر من تلك الممتلكات تم تكوينه عن طريق الشراء. كما يظهر أيضا أن تلك الأراضي كانت محبسة لفائدة مرابطي الزاوية دون غيرهم من سكانها.

استنتاجات

وانطلاقا من المعطيات السابقة يمكن استنتاج ما يلي :

1) أهمية المعطى الجغرافي في تاريخ زاوية أتسفال.

2) وجود علاقة وطيدة بين هذه الزاوية ودولة الاشراف العلويين منذ عهد السلطان مولاي سليمان.

3) أهمية الدور السياسي والديني الذي لعبته هذه الزاوية بمنطقة دادس وغيرها من المناطق المجاورة خاصة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بدليل التزام عدد من القبائل باحترام أفراد هذه الزاوية وحمايتهم وعدم مسهم بأي سوء أثناء عهد هذا السلطان، ويبدو أن تأثيرها ما فتئ يتوسع خلال نفس الفترة ليشمل رقعة جغرافية واسعة تهم مناطق دادس وإمگون (امگونة) وأزيلال (أيت بوگمّازْ) وتافيلالت وإيمغران ودرعة. وهذه المناطق هي مناطق انتشار أهم الاتحاديات القبلية الكبرى بسفوح الأطلس الكبير الأوسط والشرقي وكذا جبل صاغرو.

4) مساهمة مرابطي زاوية أتسفال في إنعاش الخط التجاري بين دادس ومراكش لا سيما في فترة حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان. ووجود هذه العلاقات التجارية بين مختلف هذه المناطق دليل واضح على الأمن والطمأنينة اللذين كانت تنعم بهما نفس المناطق خلال عهد هذا السلطان،

وحيوية هذا الخط التجاري ما هي في الحقيقة إلا مؤشر من تلك المؤشرات التي تؤكد ما ذهب إليه المؤرخ الفرنسي هنري تيراس في كتابه «تاريخ المغرب» من أنه رغم الصعوبات التي واجهها المغرب آنذاك فقد شهد ازدهارا اقتصاديا خلال السنوات الأخيرة من عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان.

5) بروز بعض أفراد هذه الزاوية على مسرح الأحداث دون غيرهم طيلة مدة لا تقل عن سبعين سنة وذلك ابتداءاً من سنة 1216 هـ / 1800 م إلى غاية 1288 هـ / 1871 م. ويأتي في مقدمة هؤلاء السيد أحمد بن علي الذي كانت له مكانة رفيعة لدى السلطان مولاي سليمان إذ كان كاتب أوامره الشريفة، ويأتي بعده أخوه السيد الحاج إبراهيم بن علي الذي ظهر لأول مرة ولآخرها في الوثائق المعتمدة في هذا البحث سنة 1247 هـ / 1831 م.

ويظهر أنه كان له ثلاثة أبناء هم محمد والمدني والحسن، وحسب نفس الوثائق فقد برز منهم بشكل ملفت للنظر السيد المدني خاصة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان. وقد ذكر اسمه لأول مرة سنة 1278 هـ / 1861 م.

وتعتبر سنة 1288 هـ / 1871 م آخر سنة ذكر فيها مع أبنائه الثلاثة الذين هم أبو بكر وأحمد وعلي.

6) تفيد المعلومات القليلة المتوفرة أن قسما لا تعرف نسبته من أملاك هذه الزاوية تكوّن بواسطة الصدقات. ولكن من المرجح أيضا أن قسطا آخر من ممتلكاتها كان قد تكوّن عن طريق الشراء. ومهما اختلفت طرق تكوين عقارات هذه الزاوية فيظهر أن وضعيتها القانونية هي وضعية الأراضي الحبسية أي أن تلك

الأراضي كانت محبسة على المرابطين دون غيرهم من سكان الزاوية التي كان يقطنها أيضا بعض العوام الذين لا تعرف نسبتهم والذين يبدو أنهم كانوا عبيدها.

الدور السياسي لزاوية إيماسين لدى بعض قبائل
ما وراء الأطلس أيام مولاي عبد الرحمان*

باديء ذي بدء أود أن أشير إلى أن الباحث في تاريخ زاوية إيماسين تواجهه صعوبة العثور على الوثائق المكتوبة، الأمر الذي يجعل تتبع مراحل تاريخها صعب المنال عليه. ولذلك لن أتعرض لظروف تأسيسها ولدورها الديني والاجتماعي في المنطقة التي توجد بها. بل سأكتفي بالحديث عن بعض مظاهر دورها السياسي خلال عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام انطلاقا من بعض المراسلات المخزنية التي تم لي الإطلاع عليها.[1]

وقبل تقديم مضمون هذه المراسلات ومناقشته يجدر بي أن أبدي بعض الملاحظات عن توطين هذه الزاوية.

فإيماسين في القرن الماضي وطيلة النصف الأول من القرن الحالي هو إسم كان يطلق على مجموعة من القصور[2] المتناثرة على ضفتي وادي دادس على بعد عشرين كيلومتراً تقريبا من مركز سكورة الحالي. وهذه القصور لا تتباعد فيما بينها،

---

* بحث منشور ضمن أعمال الدورة الخامسة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية ـ الريصاني، دجنبر 1993، إخراج وطباعة دار المناهل (وزارة الشؤون الثقافية) يناير 1996، ص. 104 ـ ص. 110.

1 ـ وهي الآن في حوزة الشريف البومسهولي مولاي محمد المختار بن عبد السلام مقدم زاوية مولاي عبد الملك بأيت احيا قيادة قلعة امگونة بإقليم ورزازات.

2 ـ بعض هذه القصور أصبح اليوم مهجورا من طرف السكان الذين بنوا منازل جديدة يغلب عليها الطابع الانعزالي. ونتيجة لذلك أصبحت هذه القصور القديمة متضررة من عوادي الزمن والإهمال معا.

وعددها سبعة وهي : قصر أيت محمد، قصر إفران، قصر اليور، قصر أمجكوك، قصر أضرنين، قصر تلات نتحنوت، ثم القصر القديم[3] ولا يستبعد أن يكون هذا الأخير ـ كما يدل عليه اسمه ـ النواة الأولى لهم جميعا. وهذه القصورهي قصور الشرفاء البوعمرانيين الذين ينحدرون من سلالة أبي عمران أحد أحفاد المولى إدريس. وأبو عمران هذا، نجهل عنه كل شيء تقريبا. وكل ما نعرفه عنه وهو أنه دفين قرية (أو قصر) بوادي دادس الأوسط لاتزال تحمل اسمه. وحسب الرواية الشفوية، فزاوية أبي عمران هذه، هي الزاوية الأم لزاوية إيماسين التي ـ كما أشرتُ إلى ذلك منذ البداية ـ يصعب معرفة مؤسسها وتاريخ تأسيسها والظروف التي واكبت ذلك.

ووضعية زاوية إيماسين لها أهمية كبرى سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية. فجغرافيا توجد هذه الزاوية في دير الأطلس الكبير الأوسط في منطقة انتقال بين هذا الأخير وجبل صاغرو في اتجاه درعة جنوبا. ومن جهة أخرى فهي تقع في ملتقى الطرق القادمة من مراكش في اتجاه تافيلالت مرورا بدمنات وإيمغران ودادس وتودغة[4] وإلى جانب هذا الطريق هناك الطريق القادم من سوس في اتجاه نفس المناطق. وبالإضافة إلى ذلك، فهي توجد في منطقة تماس تراب مجموعات بشرية مهمة هي قبائل أيت سدرات بوادي دادس وهسكورة

3 ـ انظر صفية العمراني، وثائق عن تاريخ واد دادس، بحث لنيل الإجازة في التاريخ تحت إشراف الأستاذ أحمد التوفيق، كلية الآداب ـ الرباط، السنة الجامعية 1978 ـ 1979، ص. 42.

4 ـ حسب البكري هذا الطريق كان مراقبا من طرف هسكورة، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة بغداد، ص. 152.

(إمغران). فالأولى كانت من القبائل الموالية للمخزن الإدريسي[5] أما الثانية فكانت من قبائل المخزن الموحدي.[6] وهذه المراسلات في مجموعها تغطي فترة استغرقت ما ينيف عن خمس وثلاثين سنة. وسأقف في هذا العرض عند المراسلات التي تهم عهد السلطان مولاي عبد الرحمان وعددها ثلاث عشرة رسالة : خمس منها تحمل طابع السلطان نفسه (يعني مولاي عبد الرحمان) وثماني أخرى تحمل طابع ابنه سيدي محمد خليفته بمراكش. ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أنها لا تغطي العقدين الأولين من حكم نفس السلطان إذ ـ كما أشرت إلى ذلك من قبل ـ لا تبدأ إلا في سنة 1258 / 1842 علما بأن هذا السلطان تولى السلطة عشرين سنة قبل ذلك.

وهذه المراسلات يمكن تصنيفها حسب طبيعتها والمواضيع التي تثيرها إلى صنفين :

1 ـ رسائل صادرة عن السلطان أو عن ابنه لإعطاء أمر أو تنبيه في قضية من القضايا المستجدة بالمنطقة.

2 ـ رسائل جوابية من السلطان أو من ابنه إلى زعيم الزاوية المذكورة آنفا في شأن قضية أو موضوع قد راسلهما في شأنه.

---

5 ـ Couvreur (G.), La vie pastorale dans le Haut-atlas Central. Revue de géographie du Maroc, n° 13 p. 14, 1963.

6 ـ أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص. 52. ومن الجدير بالملاحظة أن الزاوية الأم، زاوية مولاي بوعمران، توجد في مجال صنهاجة في حين أن بنتها زاوية إيماسين توجد في مجال مصمودة في تراب أيت سكري أو أيت زكري الذين هم فرع من فروع قبيلة إمغران : انظر محمد أوجامع، مادة إمغران، معلمة المغرب، ج. 3، ص. 771 ـ 772.

وتبين هذه المراسلات على اختلاف أهميتها دور الوساطة الذي كانت تلعبه زاوية إيماسين بين المخزن والشرفاء البوعمرانيين من جهة وبين المخزن وبعض القبائل وخاصة منها إيمغران من جهة ثانية. كما يتبين من خلالها المهمات المختلفة التي كان يقوم بها مولاي أحمد بن عبد القادر زعيم هذه الزاوية على عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام وما بعده. ومن هذه المهمات ما هو خاص ببعض شؤون السلطان، يتجلى ذلك حينما كاتبه سيدي محمد ابن السلطان في شأن قافلة إبل سلطانية أمرا إياه الإعتناء بها وإبقاءها بتلوات في انتظار أن يرد عليه أمره في شأنها. وهذا يؤكد ما قلناه في البداية من كون هذه الزاوية ملتقى الطرق المارة بالسفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط في جميع الاتجاهات : شمالا وجنوبا وشرقا وغربا.

ومن المهام التي حددها له ظهير مؤرخ في 21 جمادى الأولى سنة 1262 / 1847 تعيينه من طرف السلطان مولاي عبد الرحمان مقدما على الشرفاء البوعمرانيين في كل من هسكورة ودادس ودرعة ليكون «واسطة بينهم وبين العمال فيما لهم أو عليهم». وهذا التعيين رفع بدون شك من معنويته وزاد نفوذه انتشارا وترسيخا بهذه المناطق. ومهمة الوساطة هذه بينه وبين نفس الشرفاء والمخزن تشير إليها مراسلة أخرى مؤرخة في 26 ربيع 1272 / 1856 صادرة عن السلطان مولاي عبد الرحمان ابن هشام يأمره فيها بالتدخل «لدى شرفاء أيت بوعمران الساكنين بوادي أيت زكرى» الذين بلغ إلى علمه «أنهم تلبسوا بلبوس غوغاء العامة ودخلوا فتنة مغرانة». وهناك رسالة أخرى مؤرخة في 21 شوال من نفس السنة تبين أنه تدخل لدى نفس السلطان

لصالح بعض الشرفاء الذين تم القبض عليهم بدمنات من طرف القائد علي أوحدو. وتفيد نفس المراسلة أن تدخله كان مجديا إذ أن السلطان مولاي عبد الرحمان أمر قائده على دمنات بإطلاق سراحهم. وإذا لم تكشف نفس المراسلة عن الأسباب التي أدت بهم إلى الأسر فإنها لم تكشف كذلك عن هويتهم. فهل هم شرفاء من زاوية إيماسين أم من مكان آخر ؟

وقبل ذلك بثلاث سنوات (أي في سنة 1259 / 1853) طلب من نفس السلطان أن يتدخل لصالحه في ما أسمته إحدى الرسائل السلطانية بقضية «البغال، التي ثقفت في نازلة تودغة وأيت زكري»، وتضيف نفس المراسلة أنه بعد التحقيق في هذه القضية اتضح أن الناهبين هم أيت واوزكيت. وحسب مراسلة أخرى مؤرخة في 29 شعبان في نفس العام، فإن تدخله لدى السلطان مرة أخرى في هذه القضية كان إيجابيا إذ أخبره مولاي محمد ابن السلطان بأنه قد بعث إليه تلك البهائم المسلوبة عن طريق القائد علي أوحدو الدمناتي.

واعتبارا لهذه العلاقات الطيبة التي كانت بين الجانبين وكذا النفوذ الواسع الذي كان لمولاي أحمد بن عبد القادر، فإن المخزن كان يعتبره إحدى الركائز المهمة في المنطقة لدعم سياسته ويتجلى ذلك خاصة حينما بعث إليه السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام رسالة جوابية مؤرخة في فاتح صفر 1260 / 1845 يأمره فيها مساندة أحد شيوخ أيت عطا وهو الشيخ إبراهيم الشومر[7] في نزاعه مع أيت عطا. وقد خاطبه فيها

7 ـ لعله الشيخ الذي يسميه هنري تيراس في كتابه عن تاريخ المغرب، إبراهيم إيزمور.

Ibrahim Izemmour, H. Terrasse, Histoire du Maroc, t. II, 1950, Casablanca, p. 318.

بعدما أثنى على عمل الشيخ المذكور قائلا : «ولم يبق إلا ما عندكم، فقد وجب عليكم القيام في معونته بأخذ الذين يلونكم وتدميرهم والسعي في هلاكهم...». إلا أن نفس الرسالة التي تشير إلى هذا النزاع لا تعطي تفاصيل أخرى عن حيثياته وعن مكان وقوعه ولا الأطراف التي شاركت فيه.

ومما نستنتجه من المعطيات السابقة أن مولاي أحمد بن عبد القادر بومسهول مقدم إيماسين كانت علاقته مع المخزن على عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام علاقات حسنة جعلته يحظى بالثقة إلى درجة أن سيدي محمد بن عبد الرحمان خليفة أبيه بمراكش استدعاه إلى حضرته عن طريق رسالة مؤرخة في 16 محرم 1268 / 1852. ومما جاء فيها بعد الحمدلة والتصلية «خديم مولانا الأرضى مولاي أحمد بومسهول أعانك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله عن خير مولانا أيده الله ونصره، وبعد فبوصول هذا إليك ولا يأخذك تراخ في القدوم ولا بد أصلحك الله...» وإذا لم توضح هذه الرسالة الدافع الحقيقي الذي جعل ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان يستقدم إلى حضرته مقدم زاوية إيماسين فليس مستبعدا أنه كان في حاجة إليه لاستشارته في قضية أو قضايا تهم مناطق ما وراء الأطلس التي كان ينتمي إليها.

وتؤدي بنا الملاحظات السابقة إلى القول إن زاوية إيماسين لعبت دورا سياسيا مهما في مناطق ما وراء الأطلس طيلة حكم مولاي عبد الرحمان وما بعده، لكن هذا الدور سيتقلص شيئا فشيئا حينما برز الخلاف بين سيدي محمد بن عبد الرحمان وأحمد بن عبد القادر المشار إليه عدة مرات في هذا العرض. وهذا الخلاف يستشف من مضمون رسالة مؤرخة في 23 محرم

1268 / 1852 كان ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان قد بعثها إلى مقدم زاوية إيماسين آمرا إياه بالاكتفاء بقبض أعشار أيت زكري التابعين له فقط. وتزيد نفس الرسالة لتؤكد عليه : «أن الحكم عليهم فإنما يتولاه من ولاه نصره الله عليهم و[هو أحمد] بن محمد الشرقي الرحماني من جملة مغران وأن أمرناه (أي مولاي أحمد مقدم الزاوية) أن لا يترامى [على الشرفاء] التابعين لسيدي محمد بن عبد الرحمان ولا على أيت زكري المنحاشين له ليبقى كل [واحد] في هناء وعافية». وحسب ما وصلنا من معلومات شفوية عن هذه الزاوية، أنه بمرور الوقت تعمق هذا الشقاق بين الجانبين وتجذر فأدى في العقد الأخير من القرن الماضي إلى حرب أهلية بينهما نتج عنها رحيل مولاي عبد الملك أحد أبناء مولاي أحمد بن عبد القادر عن إيماسين إلى مكان آخر وهو أيت إحيا على واد دادس وهناك بني زاوية جديدة لاتزال تعرف باسمه إلى اليوم.(8)

---

8 - حسب الرواية التي التقطناها من المنطقة، فحينما خرج مولاي عبد الملك من زاوية إيماسين توجه أول الأمر إلى قصر بومحشاد بسكورة، ولكن اضطراب الأحوال لدى قبائل هذه المنطقة جعله يغير وجهته نحو وادي دادس الذي لقي به ترحابا كبيرا لدى قبائل أيت إحيا السدراتية التي منحته كافة التسهيلات لبناء زاويته بين ظهرانيها على وادي دادس الأيمن (على بعد 12 كيلومترا من مركز قلعة امگونة الحالي). ومنذ إنشائها في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي لعبت هذه الزاوية دورا سياسيا ودينيا واجتماعيا لدى قبائل وادي دادس وتودغة وإيمغران. وخير دليل على ذلك أن الفرنسيين والأگلاويين حينما وصلت جيوشهم إلى هذه المنطقة قاموا بإلقاء القبض على مولاي عبد الملك وسجنوه بمراكش لمدة تزيد عن سنتين : انظر محمد حمام، مادة بومسهول عبد الملك، معلمة المغرب، ج. 6، ص. 1863.

ومهما يكن من أمر، فنفس المراسلة السابقة تظهر مدى التراجع الذي أصاب نفوذ وحظوة شريف إيماسين لدى المخزن في نهاية عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام واستمر ذلك طيلة عهد سيدي محمد بن عبد الرحمان. وهذا التراجع لن ينعكس إلا سلبا على الدور السياسي الذي كانت تضطلع به زاوية إيماسين خلال نفس الفترة. ومع ذلك فهذا الإخفاق السياسي الذي مُنِيَ به شريف إيماسين لن يضع حدا لنشاطه السياسي بل نراه يتحين الفرصة للتقرب مجددا من المخزن وكانت تولية السلطان مولاي الحسن الأول الحكم أولى مناسبة فسارع إلى الاتصال به ربما لتهنئته باعثا إليه أخاه وولده الذين لم تكتشف المراسلة عن اسميهما. وتشكل هذه المراسلة المؤرخة في 23 محرم 1295 / 1878 آخر ما وصلنا عنها من أخباره. ولا ندري سنة وفاته.

تلك هي بعض مظاهر الدور السياسي الذي لعبته زاوية إيماسين في منطقة السفح الجنوبي للأطلس الكبير الأوسط ممثلة في شخص زعيمها ومقدمها مولاي أحمد بن عبد القادر أيام السلطان مولاي عبد الرحمان وما بعده. ويمكننا القول إجمالا إن مولاي أحمد بن عبد القادر المذكور ربما كانت له طموحات سياسية أكبر لم يستطع تحقيقها رغم تقربه من المخزن نظرا لظهور منافس له في زاويته والذي كان - على ما يبدو - من نفس مستواه أو أكثر من جهة، ومن جهة ثانية، نظرا لكون الظرفية العامة التي كانت تتطور في إطارها مناطق ما وراءالأطلس طيلة النصف الثاني من القرن الماضي كانت تعمل لصالح أسرة الكلاويين التي ما فتئ نفوذها يتقوى بشكل واضح على حساب باقي الزعامات المحلية الأخرى، الدينية منها والقبلية.

الحضور المخزني بوادي دادس خلال النصف الثاني

من القرن التاسع عشر :

شياخة محمد بن علي السدراتي نموذجا*

تعتبر الشياخة إحدى المؤسسات والنظم السياسية المهمة التب شهدها المغرب عبر تاريخه، وهي مؤسسة عريقة كُتب لها البقاء وظلت حية إلى وقتنا الحاضر. وقد تبنتها مختلف القبائل المغربية كإطار جماعي لتنظيم شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وإذا لم تكشف لنا المصادر عن بداية تنظيمها فيظهر أن شيوخ بعض القبائل كان لهم دور أساسي في تاريخ بعض الدول المغربية، خاصة خلال العصر الوسيط، ونظرا للأهمية الخاصة التي كانت لهذه المؤسسة فإن الحكم المركزي يحاول - حينما سمحت له الظروف بذلك - أن يتدخل لدى القبائل النائية التي تشبثت بها طمعا منه في السيطرة عليها ومراقبتها عن كثب، وكان من نتائج هذا التدخل المباشر إدماج هذه المؤسسة القبلية الصرف ضمن مؤسسات الدولة في الوقت الراهن. ومداخلتنا هذه، ستعرض إحدى هذه المحاولات بوادي دادس خلال النصف الثاني من القرن الماضي. وقبل ذلك لا بد من الإشارة إلى أن منطقة دادس هي مجاورة لمنطقتين مهمتين لعبتا دورا أساسيا في تاريخ المغرب وهما منطقة درعة جنوبا ومنطقة تافيلالت شرقا. لكن أهمية منطقة دادس لا تقل

---

* بحث منشور ضمن كتاب « حوض وادي درعة ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع »، منشورات كلية الآداب بأكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996، ص. 73، ص. 83.

عن أهميتهما إذ تشكل منطقة عبور لا مناص منها بين تافيلالت مراكش من جهة وبين الأطلس الكبير الأوسط وجبل صاغرو ودرعة من جهة أخرى. وبحكم هذا الموقع الاستراتيجي الذي كان يتميز به وادي دادس، فقد كان عبر تاريخه محط أطماع كثيرة للسيطرة عليه. وهذا ما يفسر إلى حد كبير كون هذه المنطقة توجد بها إلى حدود القرن الماضي وفي وقتنا الحاضر قبائل متباينة الأصول تنتمي إلى أهم الاتحاديات الكبرى المنتشرة عبر السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الأوسط وجبل صاغرو : وهي اتحاديات أيت عطا وأيت سدرات وإيمغران إضافة إلى اتحادية إمكون المنتشرة على طول وادي أَمْـگُّونْ الذي يشكل الرافد الأساسي لوادي دادس. ودون أن ندخل في دراسة تناصيل تاريخ قبائل دادس لأن المقام لا يتسع لذلك هنا ـ نلاحظ فقط مدى التفاوت الواضح في الأهمية التي كانت للمجال الذي سيطرت عليه كل واحدة منها.

ولما أدرك مخزن القرن التاسع عشر ـ وخاصة خلال النصف الثاني منه ـ ما كان لهذه المنطقة من أهمية استراتيجية خاصة، أراد أن يكون له بها حضور مكثف ومستمر يُمكِّنه من مراقبة ما يجري فيها من جهة، ومن جهة أخرى يمكنه من تأمين سلامة الطريق المارة بها والتي كانت تربط بين تافيلالت ومدينة مراكش وأحوازها. وقبل أن نقف عند هذا الحضور المتمثل في إسناد شياخة هذه القبائل المهمة بالمنطقة (أيت سدرات) لأحد شيوخها لا بد من التساؤل أولا عن المدلول اللغوي والتاريخي لمؤسسة الشياخة.

وكلمة الشيخ العربية تقابلها في الترجمة الأمازيغية كلمة أَمْغَارْ وهي كلمة لاتزال شائعة الاستعمال في مناطق ما وراء

الأطلس عامة وفي وادي دادس خاصة. ومن حيث الاشتقاق اللغوي فكلمة أمغار مشتقة من فعل إمْغُورْ وإمْقُّورْ بمعنى كَبُرَ وأصبح كبيرا، ويطلق ذلك على الانسان أو الحيوان أو الأشياء. وهناك فعل آخر من نفس الاشتقاق وهو إسَّمْغُور[1] بمعنى عَظَّم وضاف (من الضيافة) وقَرّ (القِرى ما يقدم للضيف). وإذا امعننا النظر في نفس الكلمة نجد أنها مكونة أصلا من فعل إمْغِ ومعناه نبت وترعرع وعلا. ويطلق ذلك على كل ما تنبته الأرض ويخرج منها وانطلاقا من هنا يمكن القول، إن أمغار أو الشيخ «ينبت» من القبيلة فتعظمه (تَسَّمْغُورْتْ) وتعلو سلطته عليها بإرادتها ورضاها. وهناك اشتقاق رابع وهو فعل إغْرَ مصدره تِغْرِي وتعنى القراءة والتثقيف. ومن بين ما يتميز به كذلك أمغار ثقافته ومن ثمة فهو المثقف والمفكر في قبيلته. ولا تزال بعض قبائل ما وراء الأطلس تستعمل إلى اليوم عبارة تشير إلى ما كان لامغار من ثقافة ومعلومات مهمة في الحياة، وهذه العبارة هي «إسّنْتْ أُمغارْ» ومعناها أن على كل إنسان طرح عليه إشكال ما أو استعصى عليه حل مسألة من المسائل أوتنقصه المعلومات حول موضوع معين، فما عليه إلا أن يعرض ذلك على أمغار الذي كيفما كان الحال سيعينه على إعطائه كافة المعلومات حولها. غير أن لكلمة أمغار معان أخرى مثل الرجل المسن أو سيد الخدم كما هو الحال عند الطوارق[2]. وبصورة عامة فأمغار يوصف به الانسان الذي له مكانة متميزة

1 ـ علي صدقي، مادة أمغار، معلمة المغرب، ج. 3، 763.

1 مكرر ـ Charles de Foucauld, Dictionnaire touareg-français, Imprimerie Nationale de France, 1952, t. III, p. 1171.

2 ـ Ibid, T. 3, p. 1237.

في المجتمع سواء كانت دينية أو سياسية. وبتعبير آخر فأمغار هو إنسان قوي إما بثقافته أو عن طريق تعظيمه من طرف قومه وتنصيبه عليهم.

أما المؤسسة نفسها فتسميها قبائل الجنوب بما فيها قبائل وادي دادس ـ تِيمْغُرَا وتنطبق على مجال جغرافي معين يتقلص أو يتسع حسب الظروف الداخلية والخارجية للقبيلة.

وتعود أول إشارة تاريخية مكتوبة لكلمة أمْغَارْ إلى الثلث الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي حيث يصف التادلي المعروف بابن الزيات في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف» أبا عبد الله محمد بن أبي جعفر إسحاق بن إسماعيل الصنهاجي بابن أمغار[3] وكما جاء عند نفس المؤلف فهذا الاسم أي بنو أمغار الذين تميزوا في تاريخ المغرب الديني إلى جانب هذه الإشارة هناك إشارة ثانية لنفس الفترة وهي تتعلق بوالد محمد المهدي بن تومرت الذي يقول عنه البيذق (أبو بكر الصنهاجي) في كتابه «المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب» ما يلي: «...وشهر أيضا بالشيخ على وجه التعظيم جاء يوما إلى المهدي رضي الله عنه وهو في جماعة من أصحابه فلما قال لأصحابه باللسان الغربي[4]» الزايد أمغار آنا «معناه جوزوا ذلك الشيخ[5]...». وهنا نلاحظ أن الجملة الأمازيغية الأخيرة هي جملة

---

3 ـ التادلي (ابن الزيات)، التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ترجمة رقم 75، ص. 209.

4 ـ باللسان الغربي معناه باللسان الأمازيغي.

5 ـ البيذق (بوبكر الصنهاجي)، المقتبس من كتب لأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص. 27.

غير صحيحة بالصيغة التي وصلتنا بها. ونعتقد أنه لكي يستقيم معناها وتنطبق مع ترجمتها العربية ينبغي تصحيحها على النحو التالي: «الزّريدْ آمغار آنا». ومهما يكن من أمر، فيتضح أن كلمة أمغار في المثالين السابقين مرتبطة برجال دين أو ولاية ربما أصبحوا مُبجَّلِين من طرف قومهم إما لعلمهم أو لمكانتهم الاجتماعية.

ووردت كلمة إمْغارْنْ هي الأخرى - وهي صيغة الجمع لكلمة أمغار - في إشارة تاريخية مكتوبة عند ابن خلدون في معرض حديثه عن أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي يقول عنه: «فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وقدم مكانه أخاه أبا بكر وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلا واستضاف إلى بني يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب غمات وتزوج امرأته زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت مشهورة بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن وطاس وكان شيخا على وريكة وهي زوجة هيلانة في دولة إمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ وتغلب بنو يفرن على وريكة وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا[6]...». وهذه الإشارة هي من الأهمية بمكان لأنها تشير إلى وجود كيان سياسي لدى مصامدة جبل درن كان ينسب إلى إمغارن وهو نظام لم نعرف عنه أي شيء سوى أن بني يفرن هم الذين قضوا عليه. وإذا كانت لنفس الإشارة دلالة أخرى فإنها

---

6 - ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر، ج. 6، ص. 183.

تؤكد مرة أخرى الدور الهام الذي كان لإمغارْنْ والشيوخ في فترات معينة من تاريخ المغرب.

هذا الدور الذي بدا واضحا على الخصوص أيام الموحدين والمرينيين. ويتساءل المرء عما إذا كان ابن تومرت قد استلهم نظامه من نظام دولة إمغارن المشار إليه. المهم أن دولة الموحدين قامت على أكتاف شيوخ المصامدة الذين سرعان ما أصبحت لهم مكانة رفيعة في جهاز الدولة الجديدة فأصبحوا يشكلون أطرها العليا من مستشارين ووزراء وولاة وقادة الجيش الخ... غير أن كلمة مزوار[7] التي وردت عند البيذق بدون ألف هي أصلا أمْزْوَارُ وتعني المقدم أو الأول. وحسب نفس المؤلف فإن القبائل الموحدية التي كان على رأسها مزواران كان عددها إحدى وعشرين قبيلة وهي تشكل فئة المحتسبين ضمن الترتيب الموحدي[8]. ولئن لم يكن واضحا ما المقصود بالمزوار أو المحتسب هنا فليس مستبعدا أن يكون معناه هو قائد الحرب الذي يستنفر القبيلة حينما تدعو الحاجة إلى ذلك. أما في العهد المريني فتطلق على الشخصية القريبة من السلطان ووظيفتها تشبه وظيفة الحاجب[9]. ولهذه الكلمة معان أخرى كالذي ذكره ابن غازي المكناسي في كتابه «روض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون» حين حديثه عن الجامع الأعظم بمكناس فوصف الشيخ المعمر عبد الرحمان النيار بأنه «موقت الجامع المذكور ومزوار مؤذنيها»[10]. أما في وقتنا الحاضر فتطلق كلمة المزوار على

7 - البيذق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، ص. 57.

8 - المرجع السابق، ص. 57.

9 - إبراهيم حركات، مادة أمزوار، معلمة المغرب، ج. 3، ص. 754 - 755.

10 - ابن غازي المكناسي، روض الهتون، 4000.

مقدم أو نقيب الشرفاء والمرابطين[11]. ومن الملاحظ أن بعض العائلات ولاسيما في وادي درعة كانت تحمل اسم المزواري كما هو الشأن بالنسبة لأشهرها وهي عائلة الاكلاويين. هذا إذا سلمنا بالافتراض الذي يقول إن أصل هذه العائلة من وادي درعة (تنزولين)[12].

وإذا اتضح مما سبق أن لفظ مزوار أو أمزوار قد نافس لفظ أمغار في الميدان السياسي فإنه لم يحظ بنفس الاستعمال الذي حظي به اللفظ الثاني إلى أيامنا هذه. ويذهب الأستاذ علي صدقي إلى أن «كلمة أمزوار» مرتبطة بالتسيير الجماعي «الديمقراطي» الانفلاسي [في حين] أن كلمة أمغار وثيقة الصلة بالنظام الأوليكارشي والاستبدادي في غالب الأحيان وخاصة إذا كانت وظيفة أمغار مرتكزة أساسا على سلطة عليا...»[13] قد ينطبق مثل هذا التحليل على المسار الذي شهدته بعض القبائل المصمودية خلال فترة تاريخية معينة. ولكنه لا يمكن الأخذ به بالنسبة للقبائل الأخرى كقبائل صنهاجة القبلة التي شهدت تطورا آخر، فالمعروف مثلا لدى أيت عطا وقبائل وادي دادس وإمكون أن وظيفة أمغار قننتها الأعراف منذ زمن يصعب تحديده فكانت نفس القبائل تختار شيوخها (إمغارن) من بين أعيانها المؤهلين لذلك لمدة معينة عادة ما تكون سنة واحدة قابلة للتجديد إذا ما أبان الشيخ عن كفاءته ومقدرته في تطبيق عرف القبيلة والدفاع عن مصالحها. وهذا النظام يسمى «شيخ العام»

---

11 ـ إبراهيم حركات، مادة أمزوار، معلمة المغرب، ج. 3، ص. 754 ـ 755.

12 ـ محمد أوجامع، مادة الأكلاوي، معلمة المغرب، ج. 2، ص. 618.

13 ـ علي صدقي، مادة أمغار، معلمة المغرب، ج. 3، ص. 763.

(أمْـغَـارْـ نْ ـ سَكّـاس)[14] أو أمـغـار الذي ينتـخـب لسنـة. وقـد لاحظ شـارل دوفـوكـو عنـدمـا مـر بقـبـائل مـا وراء الأطلس أن هذا النظام انفرد بـه على الخصـوص أيت سـدرات وإيمغـران[15]. ومـا كانت تتـمـيـز بـه بـعض قـبـائل صـنـهـاجـة القبلـة مـثـل أيت سـدرات وأيت عطا هو وجـود أمـغـار نِـمـغَـارْنْ أي شيخ الشيوخ وهـو شـيخ كانـت سلطتـه تعلو فـوق جـمـيـع شـيـوخ نـفس الاتحـاديـة القـبليـة : يُحتَكم إليه في القضايا الشائكة التي لم يحصل بشأنها الاتفاق بين الأطراف المتنازعة. ولذلك لا تقلد تـفس القبائل هـذا المنصب إلا لمن لـه شـخـصيـة قـويـة وإلمام واسـع بـعـرف القـبـيلـة. وكـان الشـيـخ أثنـاء مـزاولـة مـهـامـه تـسـاعـده مـجـمـوعـة من الضـامـنـين يـسـمـون إمْـزْرَاكّْـنْ يتـحـمـلون لـه مـا قـد يـصـدر عن اتـحـاديتـهم التـي يمثـلونـهـا ـ كل على حدة ـ من تصرفات قد لا تتماشى مع مصالح القبيلة.

وهكذا يظهر أن قبائل صنهاجة القبلة التي قننت الشياخة كانت تهدف بذلك أن لا تبقى هذه المؤسسة الجماعية تحت تصرف نفس الأسـر مـدة طويلة تفـاديا لما قـد يشكله ذلك من طغـيـان واسـتـغـلال للنفوذ داخل القـبـيلة، وتبـعـا لذلك فـقـد ظلت سلطة الشيخ أو أمـغـار بـوادي دادس عـمـومـا ولدى أيت سـدرات خـاصـة، تستمد شرعيتها من القبيلة نفسها منذ أمد يصعب تحديده إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا. وابتداءً من هذا التاريخ ستشهد هذه المؤسسة تحولا كبيرا لدى نفس القبائل نظرا للتدخل المباشر للسلطة المركزية في تنظيمها أملا منها في احتوائها ومراقبتها حتى تضمن بذلك مراقبة أفضل لتلك

14 ـ Charles de Foucauld, Reconnaissance au Maroc (1883-1884), reédité aux éditions d'Aujourd'hui, VAR, 1985, p. 92.

15 ـ Ibid., p. 92.

القبائل النائية سيما وأن الحضور المخزني لديها ظل ضعيفا إلى ذلك الحين. ومنذ هذه الفترة ستفقد قبائل وادي دادس وقبائل أيت سدرات على الخصوص سيطرتها شيئا فشيئا على مؤسسة طالما حافظت عليها ورعتها باستمرار.

ولتنفيذ هذه السياسة الجديدة أخذ المخزن يعين بعض الشيوخ إمغارن بظهائر رسمية. وكان ذلك بداية تطور هام في علاقاته مع تلك القبائل الجنوبية. وشياخة محمد بن علي السدراتي الدادسي التي سأبدأ في الحديث عنها تندرج ضمن هذا السياق وتؤرخ لهذه المرحلة الجديدة.

أسرته وشياخته :

لا نتوفر على وثائق مكتوبة عن أسرته ولكنها لاتزال معروفة، إلى اليوم بقصر أيت واحي الذي يقع على الضفة اليمنى لوادي دادس بالقرب من نقطة التقاء هذا الأخير بوادي امگون. وتفيد المعلومات المتداولة في منطقة أيت إحيا ولدى عائلته التي تسمى أيت حمو وأيت أُعْلِي أنها نزحت إلى هذا القصر من القصر الذي يحمل نفس الاسم بأيت سدرات الجبلية وهو قصر أيت وَاحِي نْتْشْگّشْتْ[16]. وحسب نفس الرواية الشفوية فهذا النزوح يعود إلى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر حينما تحرك أيت سدرات في اتجاه وادي درعة واستيلائهم على المنطقة العليا منه. وعلى إثر ذلك هجرت عائلات بأكملها من أيت سدرات الوادي إلى المناطق المفتوحة بوادي درعة ونتج عن ذلك استقدام أسر أخرى من أيت سدرات الجبلية لتحل محلها. وكانت أسرة أيت حمو من بين تلك الأسر الطارئة على

16 ـ هذه المعلومات التقطناها من أفواه مسني المنطقة.

أيت سدرات الوادي (منطقة أيت إحيا). وقد تمكنت هذه الأسرة أن تثبت مكانتها وتكون في طليعة العائلات المتزعمة لأيت سدرات بوادي دادس خلال القرن الرابع من القرن التاسع عشر بقيادة أحد أفرادها وهو الشيخ محمد بن علي الذي نحن بصدد الحديث عنه.

وحسب نفس الرواية الشفوية المتداولة في المنطقة فبعد وفاة الشيخ علي اختارت بعض قبائل أيت سدرات ابنه محمدا ليكون شيخا عليها. وآنذاك بادر المخزن المركزي إلى تعيينه بظهير رسمي في منصب الشيخ علي أيت سدرات الوادي المشهورين بأيت وَاسِيفْ، وكان ذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر. ومنذ هذا التاريخ إلى وفاته في بداية القرن الحالي جدد له السلاطين الذين تعاقبوا على حكم المغرب خلال نفس الفترة الشياخة على نفس القبائل. وقد استمرت شياخته تلك ما يربو عن خمسين سنة. وقد ورثها عنه عقبه من بعده إلى بداية الاستقلال.

أما الظهائر السلطانية التي تعرفنا بشياخة محمد بن علي السدراتي فعددها ستة [17]. صدر الظهير الأول منها في يوم 20 رمضان 1266 هـ/ 1848 م من طرف سيدي محمد بن عبد الرحمان وهو خليفة لأبيه يومذاك بمراكش. وكان مما جاء فيه بعد الحمدلة والتصلية : «خدام مولانا سدرات الوادي أعانكم الله وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد، فقد شيخّنا عليكم خديم مولانا الشيخ محمد بن علي فكونوا عند أمره ونهيه فيما يأمركم به من أمور خدمة مولانا الشريفة

17 ـ هذه الظهائر هي الآن بحوزة حفيده محمد أموح الذي كان شيخا على فرقة من أيت إحيا السدراتيين إلى عهد الاستقلال.

أسعدكم الله به أمين والسلام» «الطابع وبداخله : محمد بن أمير المؤمنين وفقه الله». وبعد مضي أربع سنوات على الظهير الأول أصدر السلطان مولاي عبد الرحمان نفسه ظهيرا[18] ثانيا يؤكد فيه تعيين ابنه محمد بن علي السدراتي شيخا على أيت سدرات الوادي. أما الظهير الثالث المؤرخ بـ16 شوال 1276 هـ/ 1858 م فقد أصدره السلطان محمد بن عبد الرحمان يقر فيه مجددا شياخة محمد بن علي على أيت سدرات الوادي. وفي يوم 5 ذي القعدة 1280 هـ/ 1862 م منح له نفس السلطان بواسطة ظهير رابع ستة عشر كانونا كان قد أنعم بها والده فيما سبق «إعانة له على الطريق وإضافة أبناء السبيل» (كما جاء في الظهير). وقد حدد نفس الظهير تلك الكوانين على الشكل الآتي : سبعة كوانين لدى أيت واحي أي القصر الذي ينتمي إليه ويقطنه الشيخ محمد بن علي وكانون واحد لدى صهره الشيخ المدني بن حميدة. أما الكوانين الثمانية الباقية فهي في ذمة أيت عربي بتغزا (بوادي درعة منطقة أيت سدرات). وفي 22 جمادى الأولى 1303 هـ/ 1884 م أصدر السلطان مولاي الحسن الأول ظهيرا خامسا يقر فيه هو الآخر محمد بن علي على شياخة أيت سدرات الوادي «لما كان ولاه إياه جده» يقول نفس الظهير، ويشكل الظهير. الذي أصدره السلطان مولاي عبد العزيز في اليوم التاسع من شوال 1313 هـ/ 1894 م آخر ظهير تلقاه الشيخ محمد بن علي من السلطة المركزية. وقد جاء فيه أن السلطان مولاي عبد العزيز يؤكد فيه «لحامله الشيخ محمد بن علي حكم ما تضمنه ظهير» والده من إقراره على شياخة أيت سدرات الوادي.

---

18 ـ ظهير يحمل تاريخ 1270 هـ/ 1852 م.

لكن المعطيات التي زودتنا بها الظهائر سالفة الذكر تثير من جانبنا الملاحظات التالية :

فهي أولا لا تبين الصلاحيات التي كان يخولها المخزن للشيخ محمد بن علي وما هي اختصاصاته وأين تنتهي. كما أنها لا تبين بالضبط الحدود الجغرافية لما كان يسمى بأيت سدرات الوادي الذين شملتهم شياخته. ولا نعرف كم هو عدد القبائل التي كانت بالفعل تحت طاعته علما بأن أيت سدرات بصفة عامة وأيت سدرات الوادي بصفة خاصة كانوا ينقسمون إلى لفين رئيسيين هما أيت زولي وأيت محلي المعروفين كذلك بأيت ملوان[19] ؛ وكل واحد منهما كانت تنضوي داخله مجموعة من القبائل يتغير عددها بتغير الظروف والمصالح داخل الاتحادية. وبالفعل يتجلى من خلال بعض الوثائق المحلية المعاصرة لفترة تولى محمد بن علي الشياخة على أيت سدرات الوادي أن شياخته اقتصرت على بعض القبائل أما البعض الآخر منها فقد كان تحت تصرف شيوخ آخرين أمثال محمد أعزي وابراهيم أعدي (من قصر أيت القاضي) وكلاهما من معياش التي هي إحدى المجموعات القبلية المهمة المكونة لأيت سدرات الوادي. وقد حضرا معا سنة 1277 هـ / 1858 م الصلح الذي عقدته بعض قبائل معياش في شأن تنظيم بعض شؤونها الاقتصادية والاجتماعية[20]. وحسب ما هو متداول لدى هذه القبائل إلى

19 - معلومات شفوية، جمعناها من نفس المنطقة.

20 - انظر محمد حمام، وثائق من أيت سدرات، تحقيق وتعليق، بحث لنيل الإجازة تحت إشراف الأستاذ العربي امزين، السنة الجامعية 1977 - 1978، وثيقة رقم 18، ص. 42.

يومنا هذا فإن الشيخ إبراهيم أعدى سالف الذكر كان ذا شخصية قوية فأسندت إليه قبائل أيت سدرات بأجمعها الشياخة الكبرى أي أنه كان شيخ الشيوخ (أمْغَارْ - نْ - مْغَارْنْ). وكان مما تميزت به مدة شياخته بناؤه لقصر أيت تُوخْسِينْ بأعالي وادي دادس في المكان المعروف بتزكينْ بأيت سدرات الجبلية(21). وإلى جانب هذين الشيخين هناك شيوخ آخرون كانوا معاصرين للشيخ محمد بن علي وتذكرهم الرواية الشفوية وهم الشيخ أحمد أُومَغَسُّو من قصر أيت عْمُومْ بامْعِيَّاشْ والشيخ محمد أبو بكر من قصر إلْحْيانْ بأيت عبّو والشيخ الفقيه سيدي علي بن محمد من قصر تِرِگْوِتْ بأيت إحيا. ويظهر من التحريات المستخلصة من المنطقة أن كلا من الشيخين الأولين تقلدا على التوالي منصب شيخ الشيوخ (أمغار نمغارن) على اتحادية سدرات بأجمعها. أما الشيخ سيدي علي نيت محمد فلحسن حظنا أننا عثرنا على الوثيقة التي أرخت لشياخته والتي كُتِبَتْ على إثر اختياره شيخا من طرف بعض قبائل أيت إحيا التي تشكل قسما مهما من أيت سدرات الوادي. وهذه الوثيقة قمت بنشرها في مجلة هسبريس - تامودا سنة 1987 وهي مؤرخة من جمادى الثانية 1299 هـ / 1881 م(22). وجاء في بدايتها ما يلي : "الحمد لله وحده وصلى الله على عين الرحمة. اتفقوا جماعة ءال الخير أيت إحيا بعضهم على للمصالحة بلادهم وجعلوا شيخعم المبرك عليهم أمين وهو السّي

21 - معلومات شفوية جمعناها من نفس المنطقة.

22 - Mohammed HAMMAM, Coutumes inédites des qsur-s Ayt Ihya, Groupe de qsur-s Ayt Sedrate de l'oued Dadès (1881), Hespéris-Tamuda, vol. XXV, 1987, pp. 91 - 10.

علي بني أيت محمد وأخيه الحسين من بين ترجوت...»[23] ونفس الوثيقة تعرفنا بأسماء الأشخاص الذين نابوا عن قبائلهم في اختيار وتعيين هذا الشيخ عليهم. أما القبائل التي امتد إليها نفوذه - حسب نفس الوثيقة - فهي : تِرگوْتْ، وإمْزّودَرْ، وإلْحْيَانْ، وأيت لَحْسَنْ، وإبَرّحْنْ، وأيت الرامي، وتَمْجوطْ، إشْحِحْنْ ولْكَزُورْ، وتَگّنيتْ، وتِزي، وإقَدّارْنْ، وأيت گْمَاتْ، أيت حْمُدْنْ، وتشير نفس الوثيقة في الأخير إلى أن عائلة من قصر أيت واحي الذي ينتمي إليه الشيخ محمد بن علي قد انحازت هي الأخرى إلى شياخة الفقيه سيدي علي نيت مْحَمْد. وهذا في حد ذاته يشكل تحديا كبيرا للشيخ محمد بن علي. ويظهر من قائمة القبائل آنفة الذكر أن شياخة الفقيه سيدي علي نيت محمد كانت تخضع لها أهم قبائل منطقة أيت إحيا بحيث يمكن القول إنه لم يبق خاضعا في تلك الفترة لشياخة محمد بن علي إلا عدد غير مهم من قبائل نفس المنطقة.

وعلى ضوء ما تقدم يبدو جليا أن الشيخ محمد بن علي السدراتي لم يسعفه الحظ لكي يبسط نفوذه على جميع قبائل أيت سدرات الوادي وأنه مر بأزمة سياسية حادة وصلت ذروتها في بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر وذلك حينما تجرأت إحدى عائلات قصر أيت واحي وهو القصر الذي يقطنه، أن تتحداه وتخطب ود الشيخ الجديد السّي علي نيت مْحَمْدْ قصر - ترگوْتْ سالف الذكر. وعلى النقيض من ذلك فيظهر أن الشيخ محمد بن علي قد عوض هذا الاخفاق السياسي الذي لحقه لدى أيت سدرات الوادي بالنجاح الذي حققه لدى بعض قبائل أيت سدرات بوادي درعة وخاصة عند قبيلة أيت عربي بتِغْزا

23 - Ibid., p. 97.

المدينة له بثمانية كوانين التي تشكل نصف الكوانين التي كان قد أنعم عليه بها كل من السلطان مولاي عبد الرحمان وابنه سيدي محمد من بعده(24). وإذا لم تعرف القيمة الحقيقية لمجموع هذه الكوانين لتتضح أهميتها كمورد اقتصادي فيظهر أن عددها كان قليلا ولم تكن كافية لمواجهة المصاريف وتثبيت نفوذه.

استنتاج :

ويؤدي بنا التحليل السابق إلى استنتاج ما يلي :

أ - يظهر أن بعض قبائل أيت سدرات الوادي وقفت في وجه شياخة محمد بن علي لأنها، في نظرها، كانت خارجة عن ما هو مألوف ومتعارف لديها منذ أمد يصعب تحديده.

ب - ويبدو أيضا أن الحضور المخزني بوادي دادس كان غير مكثف طيلة القرن الماضي. وقد حاول المخزن أن يتدارك ذلك حينما نهج سياسة جديدة ترتكز على تعيين شيخ القبيلة بظهير رسمي وذلك قبيل منتصف نفس القرن. ولكن - كما رأينا - فهذا التدخل المباشر في هذا التعيين الذي لَمْ تُسْتَشَر في شأنه القبائل، ما كان ليضع حدا للشياخة التي كانت تعتمد القبيلة أساسا. وقد استمر هذا الوضع بوادي دادس عموما ولدى أيت سدرات خاصة إلى أن تمَّ تكثيف سلطة الگلاويين بنفس المناطق خلال العقديْن الأوليْن من القرن العشرين. ومنذ ذلك التاريخ نَحَتْ مؤسسة الشياخة بهذه المناطق، منحى آخر يختلف عما عرفته في السابق.

---

24 - حسب ظهير 5 ذو القعدة 1280 هـ / 1862 م السالف الذكر.

مؤسسة «العافية» بوادي دادْسْ حسب وثيقة عرفية

(منتصف القرن التاسع عشر)*

حينما كنت أقوم بتحريات ميدانية بوادي دادس سنة 1978، عثرت على وثائق هامة منها ما هو عائلي خاص ومنها ما هو قبلي[1] صرف يهم قبيلة أيت سدرات[2] الوادي (أيْستْ

* ـ بحث منشور ضمن كتاب *التاريخ والنوازل*، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، *الجمعة المغربية للبحث التاريخي*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 46، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995، ص. 223 ـ 231.

1 ـ وقد حققت البعض منها في إطار بحث الإجازة في التاريخ للسنة الجامعية 1977 ـ 1978 تحت إشراف الأستاذ العربي مزين.

2 ـ يشكل أيت سدْراتْ اتحادية قبلية كبرى فيما وراء الأطلس. وتتوزع قصورها وأماكن تواجدها حاليا في ثلاث مناطق رئيسية هي : أعالي وادي دادس (ويعرفون بأيت إيغيل)، ووادي دادس الأوسط (ويطلق عليهم أيت أربعمائة) إضافة إلى رافده امگون (ويسمون أيت إحّيا). وهؤلاء وأولئك هم الذين يعرفون بأيت واسيف أو أيت سدرات الوادي. أما الفرع الثالث من أيت سدرات، فيتمركز في أعالي واد درعة جنوب مركز أگدْزْ.
والباحث الذي يريد أن يدرس ماضي هذه القبيلة وتاريخها تعوزه النصوص. ومع ذلك، يبدو أن هذه القبيلة كانت من أقوى الاتحاديات القبلية في هذه السفوح الجنوبية للأطلس الكبير. وخير دليل على ذلك تواجدها بأماكن مختلفة من هذه المناطق الشاسعة. وحسب ج. كوفرور، فهذه القبائل ربما قدمت إلى مناطق دادس بإيعاز من المخزن الإدريسي. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن الرواية الشفوية التي لاتزال متداولة بهذه المناطق تربط أصل هذه القبائل بقبيلة أيت سادن القريبة من فاس عاصمة الدولة الإدريسية. وحسب نفس الرواية، فإن أيت سدرات شدوا عضد مولاي بوعمران ـ أحد أحفاد إدريس الثاني ـ الذي آل إليه حكم هذه المنطقة في فترة يصعب تحديدها بالضبط. وبمجرد استتباب الأمن له بنفس المنطقة ـ تقول نفس

وَاسِيفْ) المعروفين اليوم بأيت سدرات السهل. ويمتد تاريخها ما بين الفترة الواقعة بين الثلث الأخير من القرن الثامن عشر[3] وبداية القرن العشرين. وتتفاوت أهميتها بتفاوت المواضيع التي تتضمنها. ومن هذه المجموعة من الوثائق تتميز وثيقتان بالنظر لتميز الموضوع الذي تثيرانه، ألا وهو موضوع الأمن والسلم بالبادية. وجدير بالإشارة إلى أن إحداهما تم نشرها ضمن بحث مشترك[4] قمت به مع صديقي وزميلي الأستاذ عبد العزيز توري ؛ وذلك في إطار بحث تاريخي - أركيولوجي يهم منطقة وادي دادس. أما الوثيقة الثانية التي تتطرق لنفس الموضوع، فهي التي أقترحُ أن تكون محور هذه المداخلة.

الرواية - قام ببناء زاوية لاتزال تعرف باسمه (زاوية مولاي بوعمران) على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط، وهي زاوية يقام بها موسم سنوي في عاشوراء. راجع :

G. Spillmann, *Villes et tribus du Maroc*, VI-IX, Tribus berbères, t. II, Districts et tribus de la haute vallée du Dra, Honoré Editeur, Paris, 1931, p. 65 ; G. Couvreur, *"La vie pastorale dans le Haut Atlas Central"*, in Revue de géographie du Maroc, n° 13, 1968, p. 14 ; M. Hammam, *"Coutumes inédites des Ayt Ihya : groupe de Qsur Ayt Sedrate de l'oued Dadès (1881)"*, in *Hespéris-Tamuda*, vol. XXV, 1987, p. 91 - 106.

3 - نشرت هذه الوثيقة في إطار بحث مشترك مع الأستاذ عبد العزيز توري، انظر :

A. Touri et M. Hammam, *"Tradition et architecture : acte coutumier d'un village du Dadès Tirigiwt"*, in *Hespéris-Tamuda*, 1986, pp. 213-229.

4 - ضمن أعمال ندوة علمية دولية أقيمت بإيريسي (صقلية) بإيطاليا ما بين 18 و25 شتنبر 1988 حول موضوع : *Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age.* Voir Touri (A) et Hammam (M), *"Frontière et rapports tribaux au Maroc présaharien : le cas d'Al-afiya des Ayt Ihya du Dadès"*, in Castrum 4, Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Publication de l'Ecole française de Rome, Casa de Velazquez, 1992, pp. 189-197.

هذه الوثيقة عبارة عن عقد عرفي مؤرخ في شهر محرم عام 1267 هـ / 1849 م، تمّ نسخه بخط بارز على ورق غليظ شيئا ما، يوجد في حالة جيدة، طوله 22 سم وعرضه 13،5 سم.[5]

وما يسترعي الانتباه منذ الوهلة الأولى أن أسلوبها غير سليم تتخلله بعض التعابير والمصطلحات التي قد تبدو غريبة وصعبة الفهم. والمتمعن في ذلك - وخاصة الذي له إلمام باللغة الأمازيغية - يدرك أيما إدراك أن تلك الكلمات والتعابير وكذا صياغتها مستعارة من اللغة الأمازيغية. ولا غرابة في ذلك، لأن اللغة الأمازيغية كانت - ومازال - لغة التخاطب اليومي بهذه المنطقة. والملاحظ عموما على وثائق نفس المنطقة أن نساخها كلما استعصى عليهم تعبير ما باللغة العربية الفصحى، لجأوا إلى صياغته بكلمات ومصطلحات من لغتهم الأم. وهذا ما يجعل قراءة مثل هذه الوثائق قراءة صحيحة، أمرا صعبا وشائكا. ودون الدخول في التفاصيل، فهذه الوثيقة تدخل في صنف الوثائق ذات الصبغة العرفية المعروفة في البوادي المغربية عامة وبوادي الجنوب خاصة. وقد قام الأستاذ العربي مزين بدراسة نماذج منها في دراسته القيّمة حوّل تافيلالت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد.[6] ولذلك أحيل إليها فيما يتعلق بالخصوصيات العامة لمثل هذا النوع من الوثائق. أما نص الوثيقة، فهو كما يلي :

---

5 - انظر صورة هذه الوثيقة المرفقة بهذا المقال.

6 - L. Mezzine, *Le Tafilalt, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII siècles*, Publ. de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1987.

« الحمد لله وحده. اتفق بنو بوبكر[7] مع أهل تمكسلت[8] وأهل الزاوية[9] فأول ما تحمل بني بوبكر عَدٌّ نَيْتْ الصافي مع ابنه محمد أعد مع الشيخ محمد وابن الصغير وكذلك محمد أقدٌ وكذلك مولانا إبراهيم الحسن نيت علي وسيد محمد نيت حم وكذلك محمد بن بوبكر الفخار حومة[10] وكما تحمل بنو أبوبكر خي لحسين نيت داوود مع حم نيت الحاج مع علي بن محمد نيت أحمد والمقدم أحمد نيت هكّ على عشر سنين من العافية[11] واشترطوا في الهناء أن من كسر الساقية[12] لبني بوبكر في الهناء المذكور يعطي قنطارين من لف تمكسلت دراهم كلها للدفع

---

7 ـ المقصود ببني بوبكر هم سكان قصر أيت بوبكر، ولا يزال هذا القصر قائما على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط. انظر خريطة المغرب 1/50.000، قُصاصة : NH29-XXIV-2b Qalat M'gouna.

8 ـ تِمْكْسلْتْ : اسم قصر يعرف في وقتنا الراهن بقصر تِمْسْكلْت بتقديم السين على الكاف. وهو كذلك يوجد على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط، شمالي قصر أيت بوبكر سالف الذكر. راجع خريطة المغرب السالفة الذكر في الهامش رقم 7.

9 ـ الزاوية المعنية هنا هي زاوية مولاي بُوعْمران المشار إليها سابقا في الهامش رقم 2. ويقع هذا القصر بين القصرين السابقين على نفس الضفة من نفس الوادي. راجع خريطة المغرب نفسها المشار إليها في الهامش رقم 7.

10 ـ لعل المقصود بالحومة هنا هو قصر إقْدّارن (وإقْدارن هم الفخارون) الذي هو قصر صغير تلتصق بناياته بقصر زاوية مولاي بوعمران السالف الذكر. راجع خريطة المغرب المشار إليها سابقا.

11 ـ من المعافاة، وهي النجاة من العلل والمكاره. لكن المعنى المقصود هنا هو التمتع بالسلام والطمأنينة والاستقرار.

12 ـ كَسَر السّاقِية، بمعنى هدمها وألحق بها الأضرار حتى لا تصلح لجلب المياه الكافية لسقي أراضي قصر أيت بوبكر الموجودة في سافلة قصري زاوية أيت بوعمران وتمسكلت المشار إليهما في هذه الوثيقة.

فيها وتحمل بهذا أهل تمكسلت ومن قتل أحد بمائة مثقال ويتبع بالدم[13] ومن جرح بعشرة مثاقل ومن هجم امرأة بمائة مثقال ومن دخل قصر أحد يعطي مائة مثقال ويصلح ما فسد من القصر ويخرجه[14] ومن سرق شاة بأربع شاة[15] ومن سرق في القصر يعطي عشرة مثقال لكل عتبة[16] ومن تخاصـ(ـم) مع أحد يصير كل منهما خمس أواق وتمولت[17] ومن كسر سن أحد خمسة مثاقل للسن ومن عمى أحدا بخمسين مثقالا للعين ومن كسر أحدا بعضوه يعطي خمسة وعشرين مثقالا ويمون عليه إلى برءه[18] تحملا صحيحا تاما على الدوام ما دام زمن الهناء[19]

13 ـ المقصود هنا هو أنه بالرغم من أداء غرامة مائة مثقال ـ التي ربما تشكل دية المقتول ـ من طرف القاتل، يصعب جدا نسيان قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. لذلك، فإن الجاني يظل متبوعا بدمها إلى أن يلقى جزاء ربه.

14 ـ بمعنى أن كل من تسلل إلى قصر لا يقطنه يكون ملزما بأداء مائة مثقال وإصلاح الأضرار الناجمة عن ذلك التسلل مثل كسر الأبواب أو هدم الجدران وما إلى ذلك. وإلى جانب ذلك كله، يجب عليه نقل كل النفايات المترتبة عن ذلك إلى خارج القصر.

15 ـ يتضح من هذا البند أن الحيوانات الداجنة ـ وخاصة منها الماشية ـ كانت دوما معرضة للسرقة والنهب. ونظرا لأهميتها في الحياة القروية فقد سن العرف أن يقوم السارق بأداء أربعة أضعاف العدد المسروق منها.

16 ـ يمكن أن يفهم هذا البند من جانبين : فإما على السارق أن يؤدي عشرة مثاقيل عن كل عتبة من عتبات القصر التي مر منها إلى أن وصل إلى المنزل الذي تسلل إليه، وإما عليه أن يؤدي نفس القدر عن كل عتبة من عتبات المنزل المسروق فقط. ولعل الفهم الثاني للبند هو المقصود.

17 ـ تَمولتْ : هي على ما يبدو كلمة محرفة عن أصلها العربي وهو المؤونة.

18 ـ هذا البند لم يكن واضحا في الصيغة التي هو عليها. ومعناه أن كل من قام بكسر عضو من أعضاء جسم غيره كان عليه أداء غرامة خمسة وعشرين مثقالا بالإضافة إلى أداء مصاريف التموين إلى أن يتم الشفاء.

19 ـ مادام زمن الهناء المذكور : أي مدة صلاحية العافية المذكورة في الوثيقة

المذكور. صح به وبجميع مضمنه في شهر الله المحرم عام 1267. عبيد ربه أحمد بن عبد العالي أمنه الله. نعم بعد ما دفع بنو أبو بكر لبني تمكسلت ولفهم[20] مائة مثقال وستين مثقال على شان ساقيتهم وتحمل أهل تمكسلت ساقية بني بوبكر أن من كسرها من لفهم يعطي قنطارين كما ذكر صح به أحمد الله لاباس ..... الواقع في السطر التاسع تدليا وفي ..... وفيه .... والعشرين. صح به أحمد أمنه الله.

ويمثله يقول عبيد ربه الحسين بن علي البوبكري[21] أمنه الله في الدارين .... ءامين

عبيد ربه عبد الله بن محمد لطف الله به ءامين.»

وقراءة هذه الوثيقة تجعلنا نلاحظ ما يلي :

1) أنها في شكلها تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي : المقدمة وتتضمن الحمدلة، وتُعرّفنا أيضا بنوعية العقد الذي جاء على شكل اتفاق (اتفق بنو بوبكر). أما القسم الثاني، فإلى جانب تعريفه بالأطراف المتعاقدة المعنية بالاتفاق، فإنه يبين كذلك التزامات نفس الأطراف كل تجاه الآخر. أما القسم الثالث

هي محددة في عشر سنوات. ونلاحظ أن كلمة الهناء هنا جاءت مرادفة لكلمة العافية.

20 ـ يتبين هنا أن قصر تِمْسْكَلْتْ (تِمْكْسَلْتْ في الوثيقة) وقصر أيت بوبكر لم يكونا ينتميان إلى نفس الحلف، علما بأن اتحادية أيت سدرات التي ينتميان إليها كانت تنقسم إلى حلفيْن كبيريْن هما : أيت زُولي وأيت مْحَلّي. وتجدر الملاحظة أن عدد القبائل التي كان يتألف منها كل واحد منهما يختلف باختلاف الظروف والمناطق المختلفة التي كان يستقر بها أيت سدرات.

21 ـ البوبكري : نسبة إلى قصر أيت بوبكر المذكور أعلاه.

والأخير، فيعرّفنا بتاريخ الوثيقة وبكاتبها وباسم فقيهين آخرين يثبتان مضمونها.

2) أن موضوعها يتعلق بقضية أساسية ـ بالبادية في منطقة ما وراء الأطلس خلال منتصف القرن التاسع عشر ـ هي قضية الحماية والأمن التي استعملت في شأنها كلمة «العافية». والعافية لغة هي اسم لفعل عافى معافاة بمعنى نجا من العلل والبلاء والأسقام. والعافية أيضا هي التمتع بالصحة التامة.[22] وقد ترد أيضا بمعنى التمتع بالسلام والطمأنينة.[23] وهذا المعنى الأخير هو المقصود في الوثيقة.

ومؤسسة الحماية مؤسسة معروفة في مناطق مغرب ما وراء الأطلس. وهذه الحماية عادة ما يُعبَّر عنها في العقود والوثائق المكتوبة بالكلمة الأمازيغية تَيْسّا التي هي مصدر لفعل إِكْسَا بمعنى رعى الماشية. وهذا المعنى يتضمن في آن واحد حمايتها وضمان قوتها. وتَيْسّا مؤسسة نجدها أيضا بهذا المعنى لدى قبائل جبال الأطلس سواء أكانت مستقرة أم غير مستقرة (الرحل). وحسب أبحاث الأستاذ العربي مزين، فإن تَيْسّا عادة ما تربط بين شخصين معينين أو بين شخص وجماعة أو بين جماعة وأخرى وذلك بواسطة عقد مكتوب يلتزم بمقتضاه أحد الطرفين المتعاقدين بحماية الطرف الآخر مقابل فروض وواجبات عادة ما تكون عينية. ومن نتائج عقد تَيْسّا عدم التوازن في القوة بين الطرفين المتعاقدين، لأن الغلبة تكون

---

22 ـ انظر المعلم بطرس البستاني، محيط *المحيط*، مكتبة لبنان، بيروت، 1977، ص. 616.

23 - R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, T. II, 2 éd. Leide, Paris, 1927, p. 145.

لصالح الطرف الأقوى الذي يصبح الطرف المحْمي في تبعيته وتحت رحمته.[24]

3) وبناءاً على الملاحظة السابقة، يبدو أن مؤسسة العافية تختلف تماما عن مؤسسة تَيْسّا. ذلك أن العافية كانت تربط بين جماعات مستقرة بواسطة عقد مكتوب يلزمها باحترام الأمن والسلم داخل إطار جغرافي محدّد له أهميته القصوى عند الأطراف المتعاقدة.[25] والأطراف التي يعنيها التعاقد هنا في الوثيقة هي قصور تِمْسْكَلْتْ (تِمْسْكَلْتْ في الوثيقة بتقديم الكاف على السين) وزاوية مولاي بوعمران وأيت بوبكر. وهذه القصور الثلاثة تقع تباعا على الضفة اليمنى لوادي دادس الأوسط. أما الإطار الجغرافي الذي هو موضوع هذا التعاقد، فهو «*الساقية*» *التي تعني على الأصح الأماكن التي شُقَّتْ* لتمر منها الساقية التي التُقِطَت مياهها من وادي دادس شمالي قصر تمسكلت. وتقوم هذه الساقية بسقي فدادين نفس القصور الثلاثة تباعاً. وغير خاف ما تشكله حماية الساقية من أهمية لهذه القصور وغيرها من القصور الأخرى، علما بأن الماء حيوي : إذ بدونه لن تقوم هنالك قائمة للفلاحة في هذه المناطق الجنوبية التي كثيرا ما تعرضت للقحوط والأزمات الفلاحية. فالزراعة المسقية، إضافة إلى الرعي، شكلت دوما أهم مواردها.

---

24 - L. Mezzine, *"Société et pouvoir dans le Maroc présaharien au XVIIe siècle, Réflexion à propos de la Tayssa de Sidi Abdel Ali"*, in *Hespéris-Tamuda*, vol. XXIII, 1985, p. 43.

25 - في وثيقة أخرى مماثلة من نفس اتحادية أيت سدرات (فرع أيت إحْيا) يتقارب تاريخها مع تاريخ الوثيقة التي نحن بصدد دراستها، نجد أن الإطار الجغرافي الذي من أجله عُقِدَتْ العافية هو المحاط الزراعي إضافة إلى أماكن التجمع السكني التي تشكلها القصور. راجع :

وإذا كانت العافية محدّدة في المكان، فإنها كانت محدّدة أيضا في الزمان. وقد حددت الوثيقة مدة صلاحية هذه العافية في عشر سنوات تتمسك خلالها الأطراف الملتزمة بعدم إلحاق أي ضرر من الأضرار بالساقية، إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى انقطاع الماء عنها. ويبدو أن هذه المدة مدة كافية لضمان الاستقرار ونوع من التوازن بين القصور المتعاقدة.

4) وللحفاظ على الأمن والسلم خلال نفس المدة المحدّدة، التجأت الأطراف المعنية بالالتزام إلى سن غرامة مالية عالية ذات طابع ردعي يكون الطرف الذي لم يحترم «الهناء» مرغما على أدائها للطرف الآخر. وقد حددت الوثيقة تلك الغرامة في مبلغ قنطارين يؤديها سكان قصر تمسكلت لسكان قصر أيت بوبكر كلما قاموا بـ«كسر» الساقية التي هي موضوع العافية.

وفي هذا الصدد، نلاحظ أن سكان قصر تمسكلت لم يتعاقدوا مع سكان قصر أيت بوبكر في شأن العافية، إلا بعدما سدد لهم هؤلاء ما مقداره مائة وستون مثقالا. ولا يستبعد أن يكون هذا المبلغ ـ نظرا لأهميته النسبية ـ هو ثمن الأرض التي شُقّتْ منها الساقية بفدادين قصر تمسكلت قبل أن تصل إلى أراضي كل من قصري زواية مولاي بوعمران وأيت بوبكر. وهكذا يبدو من خلال هذا العقد، أن القصرين سالفيْ الذكر كانا في موقع ضعف مقارنة مع قصر تمسكلت الذي كان في مركز قوة، نظرا لوجودهما في سافلة الوادي. ومع ذلك، فالعافية ـ على خلاف تيسا ـ كانت تضمن توازن القوة بين الأطراف المتعاقدة إذ لا ينتج عنها تنازل طرف لطرف آخر.

A. Touri et M. Hammam, *"Frontière et rapports tribaux au Maroc présaharien : le cas d'al-afiya des Ayt Ihya du Dadès"*, in Castrum 4, Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Publication de l'Ecole française de Rome, Casa de Velazquez, 1992, pp. 189-197.

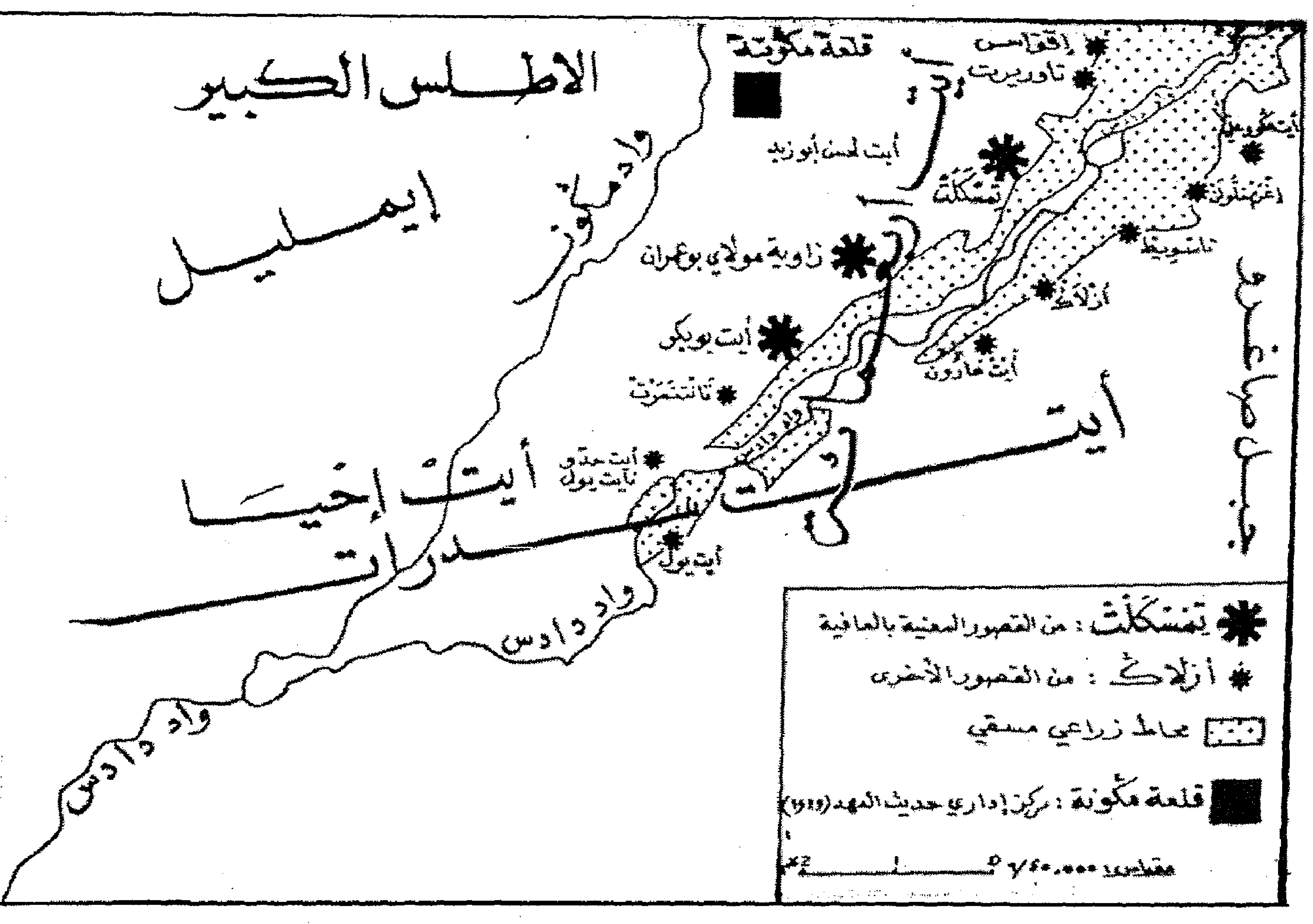
5) ويظهر من خلال الوثيقة أن القبائل أو القصور كلما اجتمعت ـ ممثلة في أعيانها ووجهائها ـ لعقد اتفاق العافية، كانت تستغل الفرصة لإعادة النظر في عرفها المحلي وصياغته ليكون مسايراً للظروف الراهنة التي تعيشها في تلك اللحظة. وهكذا، حسب الوثيقة التي هي بين أيدينا، قنّنت وسنّت القصور الثلاثة المعنية بعقد العافية عددا من القوانين تتعلق بحماية الفرد والممتلكات، الهدف منها ضمان السير العادي للحياة بنفس القصور.

ومهما يكن من أمر، فهذه الوثيقة ومثيلاتها تطرح مسألة الظروف المحلية، السياسية منها والاقتصادية التي في ظلها كان يتم مثل هذا التعاقد. ومن الصعب جدا معرفة هذه الظروف نظرا لانعدام الوثائق. بيد أنه ليس من المستبعد أن يكون التعاقد الذي يعنينا هنا، قد تم عقده بعد مرور فيضانات وادي دادس[26] التي تغطي الأراضي وتجرفها وتأتي على كل شيء، بما في ذلك السواقي والفدادين، فتنتج عن ذلك نزاعات حادة بين القبائل والقصور حول الحدود والأراضي التي ينبغي أن تشق وتمر منها قنوات الري.

ويتضح مما سبق ذكره أن العافية ما هي إلا مؤسسة جماعية يعقدها المستقرون من السكان خاصة، وبموجبها يلتزمون بحماية إطار جغرافي محدد ذي أهمية حيوية لهم، وذلك لمدة معينة.

---

26 ـ وكمثال عن هول هذه الفيضانات نشير فقط إلى فياضانات 1965 التي هدمت القصور واكتسحت الحقول بشكل مخيف، ولازالت ذكراها عالقة بأذهان السكان إلى اليوم.



منطقة واد دادس : القبائل والقصور المتعاقدة على "العافية"
خلال القرن التاسع عشر

بعض مظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي

بواحات جنوب شرق المغرب : وادي دادس نموذجا*

من أهم السمات التي طبعت التاريخ الاجتماعي لواحات جنوب شرق المغرب خاصة في تافيلالت وحوض درعة ودادس، التضامن والتكافل الاجتماعي اللذان أفرزتهما عدة عوامل جغرافية وتاريخية واقتصادية وثقافية لا يتسع المقام للخوض فيها بتفصيل. غير أن مايثير انتباه الباحث أو الدارس هو أن التضامن والتكافل الاجتماعي تعددت مؤسساتهما ومظاهرهما في مجتمعات هذه المناطق إلى درجة تمكننا من القول بأنهما كانا يشكلان الرباط الاجتماعي القوي الذي كان يربط بين مختلف شرائح المجتمع في كل وقت وحين.

ولعل من أبرز المظاهر الأساسية لتضامن السكان فيما بينهم التعاون والتآزر الجماعي المسمى تويزي أو التويزة. وكما هو معلوم فهذا النوع من التعاون الجماعي لاتنفرد به هذه المناطق وحدها بل هو منتشر ومعروف في كثير من مناطق المغرب الكبير. وتويزي أو التويزة هي تعبئة جماعية تطوعية ينخرط فيها السكان لتقديم مساعدة ما على شكل عمل لفرد من أفراد المجتمع ليس بمقدوره وحده القيام بإنجاز ذلك العمل. وهذه المساعدة الجماعية كان يستفيد منها الجميع وبالتناوب وكانت تهم الأشغال الفلاحية كالحرث والحصاد والدراس وكنس مجاري

* بحث ميداني منشور ضمن كتاب *وقفات في تاريخ المغرب*، دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 27، 2001، تنسيق عبد المجيد القدوري، ص. 161 ـ 167.

المياه، وكانت تهم في أحيان أخرى بعض الأعمال غير الفلاحية كالبناء مثلا. بيد أن التويزة فقدت شيئا فشيئا طابعها التطوعي مع بداية التغلغل الاستعماري لتصبح عملية إكراهية كان يستعملها ذوو السلطة والجاه من قواد وشيوخ لانجاز أعمالهم الشخصية[1] والملاحظ أيضا أن التويزة قد تراجع دورها خلال العقدين الأخيرين بفعل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مناطق جنوب شرق المغرب.

ومهما يكن من أمر، فالتويزة ليست المؤسسة الوحيدة للتضامن والتعاون بهذه المناطق بل هنالك مؤسسات أخرى تتميز بها مجتمعاتها. والأمثلة التي سأسوقها هي أمثلة رصدتها في منطقة دادس الواقعة غربي تافيلالت التي تتشابه معها في كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

تتميز هذه المنطقة ـ كباقي مناطق جنوب شرق المغرب ـ بوفرة مؤسساتها التي ترعى التضامن والتكافل الاجتماعي منها ماهو ذو طابع ديني. ومن أهم هذه المؤسسات مؤسسة تسمى البروك. والبرُوكْ. هو تصحيف لكلمة البركة العربية، تطلق ببوادي دادس على مقدمات بعض الأعياد الدينية يقوم أثناءها أهل القبيلة أو القصر بذبح بهيمة يقسمون لحمها فيما بينهم، ويتم ذلك قبل يوم واحد من حلول عيد الفطر، وعيد المولد النبوي الشريف، وليلة القدر، وكذا صبيحة يوم عرفات المعروف محليا بإِمْعَرْفَا : يتفق أهل القبيلة مسبقا مع البائع على ثمنها وعلى أجل الأداء الذي عادة مايكون بعد جني محصول

1 ـ اهتم بعض الباحثين الفرنسيين أيام الاستعمار بدراسة هذه الظاهرة المتأصلة في مجتمعات الشمال الشرقي. وقد ناقشت الأستاذة رحمة بورقية أبحاثهم في دراسة قيمة. انظر مادة *التويزة*، *معلمة المغرب*، ص. 2652 ـ 2653.

من المحاصيل كالحبوب (الشعير والقمح والذرة) أو الفواكه (التين واللوز) أو محاصيل أخرى (الورد مثلا).

وحينما تذبح البهيمة يقسم لحمها إلى ستة عشر جزءا تسمى تخربين (أي الخروبة) وتدْعى أيضا إمُورْنْ مفرد أمور وهذه الأقساط تقسم على العائلات المكونة للقبيلة أو القصر كل حسب مستواه الاجتماعي، إذ هناك بعض العائلات التي تأخذ أكثر من خروبة واحدة، في حين هناك عائلات أخرى تشترك في الخروبة الواحدة. ويكلف إمام مسجد القبيلة بتقييد مابذمة كل واحد من دين في قائمة تسمى زْمَامْ (أي الزمام) ويأخذ في مقابل ذلك قلب الذبيحة. أما الأسقاط ورأس البهيمة وجلدها فتباع عادة بالمزاد العلني أمام الملإ [2].

وتبركا بهذه المناسبات الدينية تطعم بعض العائلات الموسرة في القبيلة الطعام أثناءها، فتأتي بأطباق من الكسكس إلى المسجد ليتناوله المصلون من أفراد القبيلة وطلبتها الذين يحيون ليلة القدر إلى طلوع الفجر إذا كانت الليلة ليلة القدر. أما في سائر الأعياد الأخرى فيُؤْتَى بالطعام إلى المسجد خلال النهار.

وجدير بالملاحظة أن الذبيحة التي تذبح يوم 26 رمضان من كل سنة احتفاءا بليلة القدر المباركة تكون دائما ثورا. وهذا الثور كما يدل عليه اسمه أزْگرْ نْتَّقْبِلْتْ أي ثور القبيلة يكون محط عناية خاصة من طرف جميع السكان قويهم وضعيفهم علما بأن الذين لهم أبقارا يستغلونه في نسلها.

---

2 ـ انظر محمد حمام، مادة *البروك*، *معلمة المغرب*، ج. 4، ص. 1209.

وواضح مما تقدم أن مختلف الأعياد الإسلامية هي مناسبات يستغلها سكان دادس للتعبير عن تضامنهم فيما بينهم غنيم وفقيرهم وذلك عن طريق إشراك الجميع في أخذ نصيب من لحم الذبائح التي يضحى بها في هذه المناسبات.

غير أن المناسبات الدينية ليست وحدها المناسبات التي يشترك فيها السكان للقيام بمثل هذا العمل الجماعي (أي ذبح البهائم) إذ بين الفينة و الأخرى يقومون بتنظيم مايسمى بِلُوزِيعْتْ أو الوزيعة التي هي أيضا شكل من أشكال التضامن الاجتماعي. والوزيعة بهذا المعنى معروفة أيضا في كثير من مناطق المغرب بما في ذلك منطقة تافيلالت.

ومن بين هذه المؤسسات الاجتماعية المعروفة في دادس والتي تكتسي طابعا دينيا ما يسمى بـأدْوَالْ نْـطْـلْـبَـا الذي يعني حرفيا تجوال الطلبة. والطلبة هم حملة كتاب الله تعالى. ففي فصل الخريف من كل سنة ينظم فقهاء وحفاظ كتاب الله بدادس جولة دينية عبر المنطقة يتنقلون خلالها بين القصور إما بدءا من عالية الوادي إلى السالفة أو العكس صحيح إذ يتغير ذلك من سنة إلى أخرى. يشترك السكان بشكل جماعي في استقبالهم بكل ما يتطلب ذلك من شراب وتغذية تليق بهم يقدمونها على شكل وجبات تختلف أهميتها حسب اختلاف أهمية الموارد الاقتصادية لتلك القصور. فهناك قصور يستغرق مقامهم فيها يوما ونصف اليوم وهنالك قصور أخرى لايتعدى المقام فيها يوما واحدا أو نصف اليوم. وقبل مغادرة القصر في اتجاه القصر الموالي يقوم السكان ـ كل على قدر استطاعته ـ بتقديم كمية من المحصول غالبا ما تكون قدرا من محصول التين الذي يشكل الفاكهة الأساسية في هذه الربوع. وموازاة مع جمع

المحصول يقوم الفقهاء بتلاوة القرآن والدعاء الصالح للسكان. وحينما ينتهي التجوال يجتمع الفقهاء والطلبة في منزل مقدمهم لتقسيم ما تجمع لديهم من مال وبعدها يذهب كل واحد إلى سبيله في انتظار السنة المقبلة.

إلا أن الملاحظ هو أن هذا التجوال توقف في السنين الأخيرة لأسباب متعددة لايتسع المقام لدراستها بعمق وتفصيل.

ومهما يكن، فإذا كان سكان دادس يقومون بهذا العمل الاحساني فإنما كانوا يقومون به إجلالا وتعظيما للقرآن الكريم من جهة، ومن جهة أخرى تضامنا ومساندة مادية ومعنوية لحملته من أبناء المنطقة.

وجدير بالذكر أن تقدير واحترام السكان لحملة القرآن والعلم يتجلى كذلك في كون سكان القصور التي توجد بها مدارس قرآنية يقومون برعاية الطلبة الطارئين عليها لمتابعة الدراسة بها فيقدمون لهم التغذية اليومية اللازمة ابتغاء مرضاة الله تعالى إلى أن يستكملوا حفظ الكتاب العزيز. وهذا العمل الإحساني هو أيضا شكل من أشكال التضامن والرعاية الاجتماعية، وهذه الرعاية لهذا الصنف من الناس نجدها أيضا في مناطق أخرى من المغرب.

وإلى جانب هذا النوع من التكافل الاجتماعي ذي الطابع الديني إن صح التعبير هناك مظاهر أخرى تتمثل في وجود مايسمى بِتِگمِي نِنْبْيُوْنْ في بعض القصور. وهذه المؤسسة كما يدل عليها اسمها "منزل الضيوف: مخصصة لإيواء ضيوف القصر أو القبيلة، وهؤلاء الضيوف يمكن أن يكونوا طلبة علم أو شعراء جوالين (إمْدْيَازْن) ومختلف الزوار الذين قد يتوافدون

على القصر أو القبيلة من حين لآخر. أما تسيير هذه المؤسسة فيقننه عرف معروف لدى الجميع.

ومن مظاهر تضامن السكان فيما بينهم وجود الراعي الجماعي الذي يقوم برعي ماشية سكان القصر وذلك وفق شروط معينة. وهذه المؤسسة الجماعية ينخرط فيهاسواء من له قطيع مهم أو من لايملك سوى رؤوس معدودة من الماشية.

أشرتُ قبل قليل إلى الشعراء الجوالين أو من يسمون "إمْدْيَازْن"، فهؤلاء حينما يمرون بالمنطقة يستقبلهم السكان بحفاوة مقدمين لهم التغذية اللازمة والمساعدة المادية. ومقابل ذلك يمتعونهم بشعرهم وإنتاجهم الفني الذي كثيرا ما يكون موضوعه له علاقة بالقضايا الاجتماعية المعاشة آنئذ. فاستقبالهم هو أيضا شكل من أشكال التضامن مع هذه الشريحة من المجتمع.

ومن جملة مظاهر التضامن الطريفة في دادس مايسمى بَيَانُّو. وهو تضامن يهم بالخصوص الأطفال المراهقين، يكون على شكل تقليد سنوي يتم في ليلة عاشوراء، ويتمثل في قيام الأطفال بالطواف تلك الليلة عبر أزقة إغْرْمْ (القصر) طارقين أبواب المنازل مرددين جماعة بصوت عال أغنية خاصة تسمى بَيَانُّو. وأثناء تجوالهم تزودهم ربات البيوت، بما تيسر لديهن من الدقيق. وحينما ينتهي الطواف ينصرف كل واحد إلى حال سبيله على أن يجتمعوا مجددا صباح اليوم الموالي الذي يصادف يوم عاشوراء. وخلال هذا الاجتماع يطلبون من إحدى نساء القصر (إغرم) أن تهيء لهم خبزا من ذلك الدقيق الذي جمعوه بالأمس. وموازاة مع ذلك يقومون بتحضير مرق يشاركون فيه جماعة، فهذا يوقد النار وهذا يأتي بالقدر وذاك يأتي بشيء من

الخضرة والآخر يأتي بشيء من الزيت أو اللحم. وهكذا يحضرون وليمة خاصة بهم. بيد أن بعض الطقوس المصاحبة لاحتفال بيانو في وادي دادس تتميز بها بعض المقصور عن غيرها[3].

وسكان وادي دادس كانوا ومايزالون يتضامنون فيما بينهم في السراء والضراء ويظهر ذلك خاصة في الأعراس والمآتم، فتراهم يقدمون مختلف أنواع الخدمات قبل وأثناء العرس للعائلة التي يعنيها الأمر. فالنساء يقمن جماعة بتنقية الزرع الذي منه تحضر وجبات الحفل. كما أنهن يقمن بكافة الطقوس الأخرى المرتبطة بالعرس علما بأن بعضهن يقدمن خدماتهن في المطبخ أثناء العرس. أما الرجال فهم بدورهم يساهمون في العرس كل حسب استطاعته، فهذا يأتي ببعض اللوازهم من داره كالمفروشات وبعض الأواني، وذاك يساعد في تحضير المأكل للمدعوين الخ ... إذن فالعرس بهذا المعنى هو أيضا تعبئة جماعية، وهذه الظاهرة لاينفرد بها وادي دادس بل نجدها كذلك في تافيلالت وفي مناطق أخرى من المغرب.

ومن بين الطقوس الأخرى المميزة للعرس في وادي دادس مايعرف بأزَنْزي نْتّسْلِيتْ الذي هو نشيد تردده النساء والرجال - بالتناوب - بصوت عال يتعلق موضوعه بعرض أخلاق ومؤهلات العروس. وهذا الطقس عادة مايتم في الصباح الباكر قبيل شروق الشمس. وبعد الانتهاء من الغناء يُقَدَّم للحاضرين طبق من الطعام يسمى «بَرْكوِسْ» وهو نوع من الفداوش المصنوع محليا من دقيق الشعير. وتقتضي العادة أن يطبخ في إناء كبير من نحاس يطلق عليه اسم تَفَنَّا. وقبل تناوله من طرف

---

[3] انظر محمد حمام، مادة بيانو، *معلمة المغرب*، ج. 6، ص. 1912.

الحاضرين يكون هذا الطبق محط طقس يحمل اسم أَسْغَلْ نُوضَارْ أي قياس الرجل . ومؤداه أن العروس ترفع رجلها اليمنى فوق تَفَنّا (الطبق)، وأثناء ذلك تقوم بعض النساء باستدارة خيط أحمر من الصوف على قدم العروس أعد خصيصا لهذا الغرض، في حين أن البعض الآخر منهن يزغردن. وبعد القيام بهذا الطقس يقدم الطبق للحاضرين ليأكلوا منه بصفة جماعية. وللعلم فقبل تقديم هذا الطبق للحاضرين تُجْعَلُ في وسطه حفرة (تَمْنَاطْ) تملأ سمنا جاريا (أُودِي إِفْسِينْ) يغمس فيه آكلوه لقماتهم.

أما حينما يتوفى شخص ما فإن كافة سكان القصر يقومون بإعانة أسرته فيقدمون لها المؤونة اللازمة طيلة أيام العزاء الرسمية التي هي ثلاثة أيام. وهذا التضامن يساهم فيه الجميع ويستفيد منه الجميع ولايستثنى منه أحد كيفما كانت وضيعته الاجتماعية.

تلك هي بعض مظاهر التضامن والرعاية الاجتماعية المعروفة بوادي دادس، صحيح أن بعضها تراجع خلال العقود الأخيرة لأسباب مختلفة. لكن البعض الآخر منها ظل مستمرا ويتشبث به السكان إلى اليوم. وإذا كانت للأمثلة التي وقفت عندها دلالات فإنها تكمن في كونها تبرز أن التضامن والتكافل الاجتماعي شكلا ويشكلان أهم مقومات الحياة الاجتماعية في هذه المنطقة وفي غيرها من مناطق جنوب شرق المغرب، وتبرز أيضا أن التعاون والتآزر الجماعي كان أداة فعالة تخفف ليس فحسب من حدة الفوارق الاجتماعية والنزاعات الداخلية، ولكنها أيضا كانت تخلق التجانس بين السكان. وهذا التجانس هو الذي كان يجعلهم متماسكين ويقظين باستمرار لمواجهة كل

الأخطار المحتملة. وقد تمثل ذلك خاصة في الوقوف صفا واحدا أمام الاستعمار الفرنسي سواء في بودنيب أو في تافيلالت أو في بادو أو في صاغرو وغيرها من المعارك التي خاضوها في سبيل حريتهم وكرامتهم وسلامة ووحدة أراضي وطنهم. وهكذا نخلص إلى القول إن مجتمعات واحات جنوب شرق المغرب هي مجتمعات ترسخت فيها هذه الفضائل النبيلة التي كانت مصدرا من مصادر قوتها ومناعتها واستمرارها عبر التاريخ.

معطيات تاريخية حول إيگدْمَانْ : النمط القبلي للمعمار العسكري بوادي دادْسْ*

حينما تتجول عبر قصور وقرى وحقول وشعاب وادي دادس، تباغتُك من حين لآخر بنايات منعزلة وبعيدة عن أماكن السكن : إنها إيگدْمَانْ أو أبراج الحراسة. وهذه البنايات هي بقايا النظام الدفاعي التقليدي الذي اتخذته قبائل وادي دادس للدفاع عن نفسها وعن ترابها. وكل قبيلة من هذه القبائل أقامت عدة أبراج في أماكن مختلفة في مجالها، وكانت تتعهدها وتسيرها وفق أعرافها الموروثة. وظاهرة أبراج الحراسة هذه لم تكن منطقة دادس لتنفرد بها وحدها، بل هي كذلك معروفة في مناطق الجنوب الشرقي (درعة وتودغة وأفْركْلة وغريس وتافيلالت).

وإيگدْمَان مفرد أگديمْ وهذا الاسم ليس الوحيد المستعمل في دادْس بل نجد كذلك إسم إقْـزّايْ مفرد أقـزّويْ، غير أن الإسم الأول هو الأكثر استعمالا وتداولا بين الناس.

وإذ نتوفر اليوم على بعض الدراسات الرائدة التي همت بعض التحصينات التي شهدها المغرب خلال العصر الوسيط

* ـ بحث يُنشر لأول مرة.

1 ـ انظر على سبيل المثال لا الحصر :

Allain (Ch) et Meunié (J.), *La forteresse almoravide de Zagora*, in Hespéris, 3-4, p. 305-306, 1956.

2 ـ انظر على سبيل المثال لا الحصر :

Barrucand (M.), *Remarques sur l'architecture militaire alaouite au Maroc*, in Revue des Etudes Islamiques. XLVIII, fasc. 2, 1980, pp. 177-206.

والحديث، فإن ظاهرة إيگدْمان لم تدرس بعد وظل هذا الموضوع مغمورا إلى اليوم.

ولعل أول إشارة مكتوبة إلى إيگدمان أو أبراج الحراسة المنعزلة تلك التي وردت عند البيذق في مؤلفه "أخبار المهدي بن تومرت" بعد حديثه عن معركة البحيرة التي خسرها الموحدون سنة 524 هـ / 1130 م، قائلا : "أقبلت إلينا هنتاتة وگنفيسة ومزالة، واجتمعنا فلما رأوا منا ما لا يطيقون رجعوا إلى مراكش ونحن لتينمل، وجعل المعصوم برجا يقال [له] برج تيظاف وجعل فيه طبلا، وكان يمسك الطبل عبد السلام آغْيي، فلما كان في بعض الليالي أفلت الطبل، وقامت عندنا رجة، فقام عبد السلام يقول لا لا الطبل أفلت لي، فقال سيدنا أبشروا هذه البشارة".[3]

ويستفاد من هذا النص أن تِيظافْ هنا هو المحرس وأن ابن تومرت أقامه لترصُّد تحركات القبائل المشار إليها أعلاه، وأنه كان قد جعل عليه أحد أتباعه المخلصين واضعا تحت تصرفه طبلا ربما لاستعماله للاستنفار إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

غير أن كلمة تِيظافْ هذه، وردت في إشارة أخرى عند نفس المؤلِّف في نفس المؤلَّف بمعنى المدد من الجيش الذي يضاف إلى المقاتلين والمحاربين، وذلك أثناء حديثه عن افتتاح مدينة فاس من طرف عبد المومن بن علي الگومي، قائلا : "ثم قلع الخليفة من أگرسيف يريد فاسا، فنزل بالمقرمدة، فجاءه أبو بكر بن الجبر بعسكر غمارة، فقال الخليفة رضي الله عنه للموحدين :

---

3 ـ البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، دار المنصور للطباعة والوراثة، الرباط 1971، ص. 41.

أعطونا تيظاف يمشون إلى فاس ويتعرفون إن كان هذا الرجل في قوة أم لا ؟ فلم يجبه أحد منهم، فقال أبو بكر بن الجبر : أنا أدريه وأعرفه، وقرأت فيه أنا أقصده وأتعرف خبره، فأخذ خمسمائة من صنهاجة، وخمسمائة من هسكورة رجالا دون خيل، فطرق بهم على طريق الساحل، وجاز سبو وطلع بالليل...".(4)
وهكذا يتضح أن عدد تيظاف الموحدين الذين قادهم أبو بكر بن الجبر لقتال أبي بكر الصحراوي حاكم مدينة فاس من قبل المرابطين وقتئذ بلغ ألفا. وقد وردت كلمة تيظاف في إشارة ثالثة عند البيذق في مكان آخر بهذا المعنى الأخير (أي الجيش المضاف إلى النواة الأساسية من المقاتلين) وذلك حينما تحدث عن قرار عبد المومن بن علي المتعلق بالهجوم على مدينة مكناس، قائلا وهو يخاطب الموحدين : "اعطوني تيظاف يصرفون لمكناسة، فخرج إليهم يدر بن ولكوط فقتلهم جميعا إلا ثمانية من الخيل...".(5)

وفي ضوء الأمثلة السابقة يبدو أن ظاهرة التحصين والدفاع بواسطة أبراج الحراسة المنعزلة هي ظاهرة عرفتها عدة مناطق من المغرب خلال حقب تاريخية معينة وتحت تسميات أخرى خاصة في جبل الأطلس الكبير الذي نجد به أيضا ما يمسى بـأشْبَارُو (جمعه إشْبُورَا) الذي يعني مكان الترصد والحراسة.(6) وجدير بالملاحظة أن برجا يحمل اسم بُو أشْبارُو

---

4 ـ ن. م. س.، ص. 60.

5 ـ ن. م. س.، ص. 62.

6 ـ انظر :

Montagne (Robert), *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc*, Edition Afrique-Orient, Casablanca, 1989, p. 151.

لايزال معروفا في دادس إلى اليوم. وهذا البرج يشرف على نقطة التقاء وادي دادْس برافده أسيفْ أمْگُونْ قريبا من قصر أيت حْمُودْنْ بتراب أيت إحْيا السدراتيين. وللعلم فإن لكلمة أشْبَارُو بهذه المنطقة معنيين آخريْن هما الإبرة التي بها يوخز الراكب دابته لتُسرع في المشي. أما المعنى الثاني فهو رأس الركاب. وليس مستبعدا أن يكون الشكل الطبوغرافي للمنطقة والذي يشبه رأس الركاب، هو الذي أدى بالسكان إلى إطلاق اسم أشْبارُو على هذا البرج حينما أقاموه هناك.

أما بالنسبة لإيگَدْمَانْ فالنصوص المكتوبة المتعلقة بها تكاد تكون منعدمة مما يجعل التاريخ لها صعبا. وحسب ما نعلم تشكل شهادة الفيكومط شارل دوفوكو أول نص مكتوب يتحدث عنها. وقد أشار إليها أثناء مروره بوادي دادس في يومي 22 و23 أبريل سنة 1884 قائلا : "تتراءى لي العديد من البنايات الغريبة التي كنت قد شاهدت بعض أنواعها عند أيت سدرات بوادي درعة : إنها إيگدمَانْ التي يبدو أن استخدامها خاص بوادي دادس وتودغة وأفْركْلة وفي بعض مناطق وادي درعة. فعلى الأقل لم أرها إلا في هذه المناطق. وهي كثيرة بالمنطقتين الأوليتين (دادس وتودغة) إذ تصادفها في كل مكان، في حين أنها قليلة بالمنطقتين الأخريَيْن أفْركْلة ودرعة. وهنا (في دادس) أقيمت إيگدمان على حدود القصور وعلى جنب الوادي وفي وسط المزروعات. وهي أبراج منعزلة يصل علوها ما بين 10 و12 مترا. بُنيت بالطوب المجفّف في الشمس، مربعة الشكل، تتخللها شرفات ذات مقاذف. وهذه الأبراج كثيرة على الخطوط المشكلة للحدود الفاصلة بين القرى (أو إيغَرْمانْ). وعادة ما تكون على شكل بُرجيْن متقابليْن، كل واحد منهما في جانب. وحينما

تندلع الحرب بين القصور، وهو ما يقع كل يوم تقريبا (...)، فإن كل طرف من الأطراف المتنازعة يملأ أبراجه بالرجال المدججين بالسلاح تكون مهمتهم حماية المزروعات والسواقي...".[7]

إن هذا النص - على قلة معلوماته - يتضمن إفادات في غاية الأهمية، منها :

- التوطين الجغرافي لظاهرة إيگدمَانْ في مجال واسع يمتد من وادي درعة إلى تافيلالت مرورا بوادي دادس وتودغة وفركلة. ويضيف في إشارة أخرى إلى أن إيگدْمان اختفوا باختفاء أشجار النخيل بمنطقة غريس.[8] وبتعبير أوضح فإن انتشار إيگدمان توقف عند وادي زيز جنوبي سهل تيعلاّلِينْ. لكن الملاحظ حاليا هو وجود بقايا بعض الأبراج شمالي هذا السهل. مما يؤدي بنا إلى التساؤل عن تاريخ إقامتها، وعمن قام بذلك. فهل تعود إلى ما قبل مرور دوفوكو بهذه المنطقة ؟ أم أنها من بناء الفرنسيين بعد سيطرتهم على بلدة الريش ومنطقة تافيلالت كلها ؟ فهذه الأسئلة وغيرها لن تجيب عنها إلا الدراسة الميدانية الدقيقة.

داخل هذا المجال الجغرافي الواسع، لاحظ دوفوكو أن كثافة هذه الأبراج كانت بالخصوص في وادي دادس وتودغة. وهذه الملاحظة تبرز أن ظاهرة إيگدمان أو أبراج الحراسة شكلت على الأقل خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر أحد السمات الأساسية للوضع السياسي والعسكري الذي كان سائدا في مناطق جنوب شرق المغرب عموما ووادي دادس وتودغة

7 - De Foucauld (Vicomte Charles), *Reconnaissance au Maroc, Les Introuvables*, Editions d'Aujourd'hui, 1985, pp. 214-215.

8 - Ibid., p. 230.

خصوصا. ووجودها بكثافة في هاتين المنطقتين الأخيرتين خلال الحقبة المذكورة يجعلنا نتساءل عن السبب في ذلك.

المعروف أن قبائل أيت عطا منذ ظهورها بالأطلس الكبير الشرقي وسفوحه الجنوبية الشرقية كانت تزحف نحو هذه المناطق للسيطرة عليها إما جزئيا أو كلية. وقد كشفت هجماتها على هذين الواديّيْن (دادس وتودغة) طيلة القرن التاسع عشر وخاصة خلال النصف الثاني منه، نظرا لاستراتيجيتهما (منطقتا عبور) وتوفرهما على إمكانيات اقتصادية مهمة من ماء وموارد فلاحية ومعادن. وليس مستبعدا أن تكون قبائل وادي دادس وتودغة قد أقامت العديد من إيگدمان خلال تلك الحقبة للدفاع عن ترابها[9] لمنع التسرب العطاوي إليها. ومع ذلك فقد استطاعت قبائل أيت عطا أن تسيطر على جزء مهم من وادي تودغة وقد أدى ذلك حتما إلى إضعاف قبائل أيت إزْدگ بفقدانها لهذه الأراضي. أما تسربها إلى دادس فقد ظل محدودا في دادس الأوسط (قصور أيت بولمَان وأيت أزينْ وأيت حفي وأيت عَلْوَانْ) وقريبا من مركز بومالن دادس الحالي (قصور بُومالْنْ دادس وسْليلو وأيت موتدْ وجِيدا وأيت بُووَلّالْ وتارْمُوشْتْ)، ولم يؤد بالتالي إلى تغيير كبير في الخريطة القبلية الموروثة منذ العهد المريني على الأقل.[10]

---

9 - حسب ما تتناقله الرواية الشفوية إلى اليوم فإن مجموع القصور التي استولى عليها أيت عطا بوادي تودغة فاق الستين. وإذ يبدو هذا الرقم مبالغا فيه فليس مستبعدا أن يكون حقيقيا بحكم اتساع المجال الترابي الذي تسيطر عليه قبائل أيت عطا بهذا الوادي في وقتنا الحالي.

10 - محمد حمام، نبذة *تاريخية عن قبائل وادي دادس*، البحث الأول من مواد هذا الكتاب.

وشهدت شبكة إيگدْمانْ أو أبراج الحراسة تطورا في تاريخها في مناطق جنوب شرق المغرب عموما ودادس خصوصا بوصول الفرنسيين إلى هذه المناطق في نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن العشرين، ذلك أن الفرنسيين أدركوا بسرعة فائقة فعّاليّة هذه الأبراج في ضبط القبائل بمحاكاتها وشيّدوا العديد منها في أماكن ونقط استراتيجية : ومن سمات الأبراج التي أقامها الفرنسيون على طول جنبات وادي دادس أنها أقيمت في مواقع عالية بحيث يمكنها أن تراقب منطقة واسعة. ومن أمثلة ذلك البرج الذي أقاموه على مشارف قصر أيت ودّارْ الواقع على الضفة اليسرى لوادي دادس. وهذا البرج الذي ماتزال أطلاله ماثلة للعيان كان يراقب منطقة أيت إحْيا بكاملها. ويوجد برج مماثل له على نفس الضفة بالعالية على مشارف قصر أيت بوولاّلْ. هذا الأخير أقيم ليراقب قبائل أيت أشراحيل بأجمعها. أما السمة الثانية لهذا النوع من الأبراج هي أنها ذات حجم كبير وتحيط بها ساحة مسورّة. وكان الهدف من توسيعها هو استيعاب أكبر عدد من الحراس والمقاتلين. وبالإضافة إلى ذلك فقد استعمل الإسمنت المسلح في بناء البعض منها كما هو الحال بالنسبة للبرج المقام على مشارف قبائل بومالن دادس (أشراحيل).

وهكذا تكثفت شبكة إيگدمان بوادي دادس خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين. لهذا فالدراسة الأثرية الجادة لا بد لها من التمييز بين أبراج النمط التقليدي القبلي، وبين أبراج الفترة الاستعمارية المتأخرة.

الموقع :

يتغير هذا الموقع من أگدِّيمْ إلى آخر. فالموقع عموما كان يحدده الهدف الذي من أجله كان يقام البرج في مكان دون آخر. فإيگدْمان لا تقام دائما بالضرورة في أماكن عالية بدليل وجود العديد منها في أماكن منبسطة وسط الحقول أو قريبا من مجاري المياه (تيرْگينْ)، أو على الخطوط الفاصلة بين القصور (إيغرْمَانْ).

مواد البناء :

هي المواد المتوفرة محليا من تراب وأحجار وأخشاب وقصب. غير أن هناك تباينا واضحا في نسبة استعمال هذه المواد من برج إلى آخر. إذ هناك أبراج كلها مبنية بالطوب من الأسفل إلى الأعلى، في حين أن هناك أبراجا مبنية كلها بالطابية، وهذان النوعان هما المنتشران بكثرة. وهناك صنف ثالث نصفه السفلي مبني بالطابية بينما النصف العلوي مبني بالطوب. كما نجد بعض الأبراج التي نصفها السفلي مشيّد بالحجر والنصف العلوي مشيَّد بالطابية. وهناك صنف خامس مبني يالحجر كله من الأسفل إلى الأعلى. وهذا الصنف يظل نادرا. وهناك صنف سادس استعمل فيه الإسمنت المسلح، وهذا الصنف هو من بناء الفرنسيين. والملاحظ أن تباين صلابة هذه المواد، انعكس على مقاومة هذه الأبراج المهجورة لعوادي الزمن، فقليل منها لايزال في حالة جيّدة، ومنها ما تهدم جزئيا أو كليا، ومنها ما اندثر بصفة نهائية.

الشكل :

هناك كذلك تباين واضح في أشكالها، فنجد أبراجا ذات شكل مربع وأخرى ذات شكل دائري أو مستطيل. وهي تتباين أيضا في علوها بحيث تجد أبراجا ذات طابق واحد كما تجد أبراجا تحتوي على طابقين أو أكثر. وما يميز أغلب هذه الأبراج، هو توفرها على نوافذ قليلة. في حين تكون بها ثقوب كثيرة في الأعلى هي بمثابة مقاذف كان المقاتلون يستعملونها لقذف الأعداء بالبارود.

بناءا على التحليل السابق، فظاهرة إيگدْمانْ بوادي دادس لا يمكن فهمها إلا في سياق معطيات جغرافية وتاريخية (سياسية وعسكرية) واقتصادية خاصة بمناطق جنوب شرق المغرب كله. وهذه المعطيات كلها معطيات متداخلة، فالمعطى الجغرافي يتمثل في كون هذه المناطق هي مناطق انتقال من الجبل إلى الصحراء ومن ثمة فهي مناطق المرور : شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. أما المعطى السياسي والعسكري فيتجلى في كون أهم الاتحاديات القبلية (صنهاجة، وهسكورة، وزناتة، ومعقل) كانت تتنافس للسيطرة عليها كلية أو على الأقل السيطرة على جزء مهم منها. وكان زحف أيت عطا خلال القرن التاسع عشر للميلاد آخر محاولة من هذا النوع خاصة في وادي تودغة ووادي دادس. ويظهر أن شبكة إيگدْمَانْ أو أبراج الحراسة تكثفت بهما خلال نفس المدة. وهذه الشبكة ازدادت كثافة حينما أقام الفرنسيون أبراجا بهاتين المنطقتين أثناء وصولهم إليها في نهاية العقد الثالث من القرن العشرين.

ومهما يكن من أمر، فالملاحظ أن الوضعية المعمارية في الوقت الحالي لكثير من هذه الأبراج لا تبعث على الارتياح إذ

أصبح الكثير منها مهددا بالزوال بسبب الإهمال وعوادي الزمن. وللإشارة فكثير منها اندرس وتناسته الذاكرة الجماعية بوفاة مُسِنِّي المنطقة. لهذا فقد حان الوقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان حفاظا على تراث أصيل ميّز تاريخ وحضارة هذه المنطقة. وإن من شأن ذلك أن يضمن استمرار هذه المقومات الحضارية الأصيلة مستقبلا ويساهم بالتالي في تنمية المنطقة إن على مستوى الثقافة أو الاقتصاد خاصة في الميدان السياحي.

مصادر ومراجع البحث

- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، دار المنصور للطباعة والوراثة، الرباط، 1971.

- محمد حمام، *نبذة تاريخية عن قبائل وادي دادس*، (ضمن موضوعات هذا الكتاب).

- Allain (Ch.) et Meunié (J.), *La forteresse almoravide de Zagora*, in Hespéris, 3 - 4, p. 305 - 306, 1956.

- Barrucand (M.), *Remarques sur l'architecture militaire alaouite au Maroc*, in revue des Etudes Islamiques, XLVIII, fasc. 2, 1980, pp. 177 - 206.

- De Foucauld (Vicomte Charles), *Reconnaissance au Maroc (1883 - 1884), Les introuvables*, Editions d'Aujourd'hui, 1985, pp. 214 - 215.

- Montagne (Robert), *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc*, Editions Afrique-Orient, Casablanca, 1989, p. 151.

أزمة الماء بآسِيفْ ـ نْ ـ دادْسْ (وادي دادس) من خلال ثلاث وثائق محلية*

نادرة جدا هي المعلومات التاريخية المدونة عن وادي دادس في المصادر المختلفة لتاريخ المغرب، مما جعل جوانب عديدة من تاريخ هذا الوادي يلفه الضباب. ولعل السبب في تجاهل تلك المصادر لذكره راجع لوقوعه قريبا من منطقة درعة وتافيلالت اللتين كان لهما دور أكبر ـ كما هو معروف ـ في الأحداث والتطورات التي شهدها المغرب منذ العصر الوسيط إلى اليوم. بيد أن الوثائق المحلية التي أخذت تظهر من حين لآخر قيمنة بأن تعين الباحثين على تسليط الأضواء على كثير من تلك الجوانب المجهولة.

شكل الماء ومازال عصب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في وادي دادس، ذلك أن الفلاحة هنا لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلا بالسقي. وهذا الأمر يفسر إلى حد بعيد استقرار السكان على جنبات الوادي للاستفادة من مياهه الجارية والباطنية وفق نظام جماعي قَبَلي كانت تحكمه أعراف مكتوبة وأخرى شفوية يتناقلها الخلف عن السلف. وقد مكنني الاهتمام بتاريخ وادي دادس وحضارته منذ ما يزيد عن عقدين من الزمان من اكتشاف وثائق متنوعة قمت بنشر البعض منها في أعمال ندوات وطنية ودولية أو في مجلات علمية. وأود، في هذا الصدد، أن أكشف

---

* ـ بحث منشور في مجلة أمل، العدد 24، 2001، ص. 29 ـ 43 ؛ عدد خاص بتاريخ الري في الجنوب المغربي (ندوة الأيام الوطنية الثامنة للجمعية المغربية للبحث التاريخي ـ أگادير 27 ـ 28 أكتوبر 2000).

النقاب ـ لأول مرة ـ عن ثلاث وثائق تتعلق بالماء في هذا الوادي وما كان يخلقه من نزاعات بين القبائل بسبب نقصانه. وقبل تقديمها وتحليل محتواها، أرى أنه من الجدير التعريف بهذا الوادي ـ جغرافيا ـ لأن من شأن ذلك أن يساعد على فهم معطيات تلك الوثائق.

وصف أبوالقاسم الزياني في مؤلف «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا» منطقة دادس قائلا : «وما قابل تادلة خلف درن إقليم دادس ممتد مع الوادي المذمور، عليه قصور، وقرى، ونخيل، وبساتين، ونخيل، ومزارع، وأمم لا تحصى».[1]

إن هذا الوصف ـ على اقتضابه ـ مهم إذ يبين أن الزياني كان دقيقا في توطينه لهذا الوادي، مما يدل أنه ربما كان قد جال فيه طولا وعرضا. فهو فعلا واد «مذمور» : أي محاط ومحصن بجبل الأطلس الكبير من الشمال والغرب، وجبل صاغرو من جهة الشرق والجنوب. بالإضافة إلى ذلك فقد شهد ساكنة مهمة بدليل انتشار القصور والقرى في جميع أرجائه، وهي المسماة محليا «إغَرْمَانْ». وهذه الساكنة كانت تقوم بنشاط فلاحي في الحقول الممتدة على ضفافه. والملاحظ أن وصف الزياني لم يتضمن أية إشارات حول باقي الأنشطة الاقتصادية الأخرى المتأصلة في هذا الوادي مثل الرعي والحياكة وصياغة الحلي والحدادة والبناء وغيرها. كما أنه لا يعطينا فكرة واضحة عن السمات الطبيعية الأخرى المرتبطة بالمناخ وأهمية الصبيب.

---

1 ـ الزياني (أبو القاسم)، *الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا*، تعليق عبد الكريم الفيلالي. دار نشر المعرفة، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، طبعة 1412 هـ / 1991 م، ص. 67.

ينتمي وادي دادس جغرافيا إلى حوض درعة الذي يشكل رافده الأعلى. وجدير بالذكر أن أهمية مياه وادي دادس بالنسبة لوادي درعة تأتي من كونها تستفيد من المياه الغزيرة - نسبيا - لوادي امْكُونْ الذي يصب فيه على الضفة اليمنى. وآسيفْ - نْ - دَادْسْ ينبع من الأطلس الكبير الشرقي وتحديدا في منطقة إمْدْغَاسْ الواقعة في تراب قبائل أيت حْدِيدّو، ويمتد على مائتي كيلومتر تقريبا إلى أن يلتقي بوادي ورزازات - جنوب المدينة التي تحمل نفس الاسم - ويشكلان معا وادي درعة. ومعلوم أن وادي دادس يمر عبر مضايق شديدة يصل بَعدَها إلى المنطقة السهلية التي تحمل اسمه. وتختلف أهمية منسوب مياهه باختلاف فصول السنة. فعلى العموم، هو ذو صبيب غزير في فصل الشتاء، وتقل مياهه باقتراب فصل الصيف الذي يصبح فيه جافا وباطنيا، ومن حين لآخر يشهد فيضانات مهولة تجرف معها الحقول والمباني كما حدث خلال سنوات 1942 و1950 و1964[2] عندما تزامنت فيضاناته مع فيضانات رافده آسِيفْ أمْكُونْ.

وتتفاوت التساقطات في وادي دادس بين عاليته وسافلته تفاوتا كبيرا. وهكذا تصل في العالية إلى 200 مم، بينما لا تتعدى 100 مم في السافلة.[3] وقد تصل إلى أقل من ذلك في بعض الأماكن (سكورة التي لا تتعدى فيها 75 مم).[4]

---

2 - حسب تحريات ميدانية.

3 - D. Jacques-Meunié, *Le Maroc Saharien des origines à 1670*, Librairie Klincksieck, Paris, 1982, t. 1, p. 90.

4 - Idem., p. 93.

أما مناخ الوادي فهو جاف إلى درجة أن التأثيرات المتوسطية تفقد تأثيرها بفعل الرياح الصحراوية التي تهب على المنطقة طيلة السنة.[5]

وعلى العموم، فإن وادي دادس يتميز بنفس السمات العامة المميزة لأودية السفح الجنوبي للأطلس الكبير والتي هي:

- عدم انتظام الصبيب خلال السنة.

- الفرق الشاسع بين السنوات المطيرة والسنوات الجافة.

- ظهور الفيضانات الجارفة - القصيرة المدى - من حين لآخر.

- غزارة الماء - نسبيا - في العالية وقلته إن لم نقل انعدامه في السافلة خاصة في فصل الصيف.

وما يمكن استخلاصه من المعطيات الجغرافية السابقة هو أن وادي دادس كان يشهد خصاصا كبيرا في المياه، مما جعل المشكل قائما ومزمنا خاصة في دادس الأوسط الذي يشكل المحاط الزراعي الشاسع. وهذا الجزء الذي يقع بين مركزي بومالن دادس وقلعة امكونة، هو الذي تتناقص فيه مياه الري بشكل سريع ابتداءاً من شهر أبريل وطيلة فصل الصيف إلى بداية موسم الأمطار الذي يبدأ في أحسن الأحوال خلال شهر نونبر.

ولالتقاط مياه الوادي المتوفرة قامت قبائل وادي دادس ببناء عدة سدود تقليدية في أماكن مختلفة على طوله ؛ وهذه السدود تغذي مياهها مجموعة من السواقي الرئيسية المسماة محليا تركين (مفرد تَرْكَا) والتي تتفرع عنها هي الأخرى قنوات صغيرة تسمى إغْلانْ (مفرد أغْلانْ) توصل الماء إلى الحقول

5 - Idem., p. 91.

والبساتين المختلفة. وللعلم فإن هذا النظام السقوي المضبوط كان يخضع (وما يزال) لنظام جماعي يتعهده بالرعاية والصيانة طول السنة.

وهكذا، تمكن السكان من الاستفادة من مياهه وذلك بسقي أكبر عدد من الأراضي. إلا أن أهم السواقي كانت تجف خلال فصل الصيف بفعل توقف الصبيب الذي يصبح باطنيا ويتفجر هنا وهناك في شكل عيون (إغْبُولا) خاصة لدى قبيلة إوْرْتْگِيين وأيت أرْبَعْمايّة السدراتيين. ورغم أهمية مياه هذه العيون، فإنها كانت غير كافية. وكان ذلك يؤدي إلى أزمة في المياه تنشب عنها حتما نزاعات حادة بين القبائل. ولاحتواء الأزمة مؤقتا تبادر الأطراف المتنازعة حول الماء بعقد صلح بين يدي ولي صالح معروف بصلاحه وولايته، مما يعطي لذلك الصلح قدسية لا يجرؤ أحد على الطعن فيها مخافة أن تصيبه اللعنة الربانية. ولذلك تعود السكينة إلى النفوس ويحدوها الأمل من جديد للعيش في سلام.

والوثائق الثلاث التي سأعرض محتواها تندرج في سياق الخصاص الكبير للماء في وادي دادس، أولاها مؤرخة في عام 1181 هـ/ 1767 م. أما الثانية فهي كتبت في أواسط صفر من عام 1247 هـ/ 1831 م. في حين أن الثالثة تعود إلى سنة 1350 هـ / 1931 م. وهذه الوثائق الثلاث تهم منطقة أيت أربعمايّة السدراتيين المشار إليهم سابقا. وللعلم فهذه المنطقة تستفيد من مياه العيون لا سيما عندما يجف الوادي في فصل الصيف. وهذه العيون تقع بالتتابع على الضفة اليمنى من العالية إلى السافلة، كما يلي :[6]

6 ـ تحريات وجولات ميدانية في المنطقة.

1. أغْبَالُو نَايْتْ سَالْمْ، ويرْوي أراضي قبيلة تَازّاخْتْ.

2. أغْبَالُو نِمْزُوغْ، ويروي أراضي امْعِياشْ.

3. أغْبَالُو نَايْتْ سيدي علي أُوعَمِّي القريب من قصر إغْرَمْ نيگْرانْ، وهو يروي أراضي قبيلة تَازّاخْت.

4. أغْبَالُو نايْتْ أُودينَارْ الذي تسقي مياهه أراضي قبائل تَاوْرِيرْتْ زْگّاغْن، وأيت عْلي وَحْسايْنْ وتِمَسْكَلْتْ وزاوية مولاي بوعمران.

5. أغْبَالُو نايْتْ موسى الذي يسقي أراضي قبيلة تَاسْويطْ وأيْتْ بُوبْكَرْ.

6. أغْبَالُو نايْتْ بُوبْكرْ، وتستفيد من مياهه أراضي قبيلتي أيْتْ بُوبْكرْ وتَانْتْنَمَرْتْ.

وإلى جانب عيون الضفة اليمنى هناك عيون الضفة اليسرى، وتتابع من العالية إلى السافلة كالآتي :(7)

1. أغْبَالُو نْتَلاتْ نايْتْ إدريسْ، ويروي أراضي قبيلة تاسْويطْ.

2. أغْبَالُو نُوزْلاگْ، وتستفيد من مياهه أراضي قبيلة أيْتْ هَارونْ.

3. أغْبَالُو نايْتْ يُولْ، وتسقي مياهه أراضي قبيلتي أيْتْ يُولْ وأيْتْ سيدي مُولُودْ.

7- تحريات وجولات ميدانية في المنطقة.

الوثائق :

الوثيقة الأولى : مؤرخة في أواسط شهر شعبان 1181هـ / 1767 م.

وجاء فيها بعد باسم الله الرحمان الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وءاله ما يلي : «هذا صلح أوقعه على بركة الله الشيخ الكامل والولي الشامخ سيدنا وسنادنا السيد عبد الله بن حسين نفع الله به ءامين، بين الشرفاء الأصليين والسادات الكاملين أولاد مولينا (مولانا) وسنادنا السيد أبي عمران نفع الله به ءامين وبين أهل تسويط وأيت منصور في شأن ساقيتهما، وهو أن يجعلوا سدا واحدا يشترك فيه الساقيتان ويقسمون المياه بينهم أنصافا جمعة لأولاد سيدنا ومولانا أبي عمران ومن معهم في الساقية وجمعة لأهل تسويط وأيت منصور ومن معهم في الساقية. بحيث لا يبدل هذا الأمر ولا يغير أبد الآبدين ودهر الداهرين، فمن سعى في تبديله أو تغيره فالله حسيبه وولي الانتقام منه صلحا تاما على حالة الرضى من الجانبين رضا تاما. وشهد بذلك من أشهده الفريقان على أنفسهم والكل بحال تم به الإشهاد وكتب ذلك كله بين يدي الولي الفاضل والشيخ الصالح السيد عبد الله المذكور وبتاريخ أراسط شعبان عام أحد وثمانين ومائة وألف وذلك بحضور جم غفير من أهل أربعمائة. عبد ربه تعالى محمد بن يوسف التجنزي لطف [الله به ءامين] وعبيد الله محمد بن علي السملالي لطف الله به ءامين. أديا فثبت وأعلم به سعيد بن إبراهيم الشريف».

يستشف من هذه الوثيقة أن الصلح الذي تم إبرامه في التاريخ المشار إليه أعلاه بين قبيلة سيدي بوعمران وقبيلتي تسويط وأيت منصور (أيت الوافي حاليا) في شأن إقامة سد

مشترك لاستغلال الماء بالتناوب بينهما أسبوعيا ربما سبقه نزاع لم تشر نفس الوثيقة إلى حيثياته الدقيقة. وليس مستبعدا أن يكون هذا النزاع قد وقع بين الطرفين في فصل الصيف الذي يجف فيه صبيب وادي دادس.

ويتبين من جهة أخرى أن هذا النزاع تم وضع حد له بفضل تدخل الولي الصالح سيدي عبد الله بن حساين الذي كان آنئذ يمثل بوادي دادس أهم سلطة دينية وروحية قبل انتقاله إلى وادي درعة، ومباركته لهذا الصلح تعطيه القدسية والمصداقية لدى الطرفين المتنازعين.

ثالثا وأخيرا، فهذا الصلح تم بحضور من وصفتهم الوثيقة بـ«جم غفير من أهل أربعمائة» : أي بحضور أهل الحل والعقد في قبيلة أيت أربعمائة التي تنتمي إليها القبائل المعنية بالصلح. وحضور هؤلاء الأعيان لما تم الاتفاق عليه يعطي لهذا الصلح صبغة العلانية والقوة القانونية التي يحظى بها هؤلاء الأعيان كضامنين للقوانين وأعراف القبيلة.

الوثيقة الثانية : مؤرخة في أواسط صفر عام 1247 هـ / 1831 م.

وهي في طبيعتها القانونية تختلف عن الوثيقة السابقة، ذلك أنها كتبت لإثبات وإقرار حق استغلال الماء لفائدة قبيلة زاوية مولاي بوعمران سالفة الذكر إضافة إلى قبائل أخرى من نفس المنطقة. وقبل التعليق على ما جاء فيها نوردها كاملة في نصها الأصلي : «الحمد لله وحده [و] صلى الله على سيدنا محمد وءاله. ليعلم الواقف على هذا الرسم أن الشرفاء يعني ءال تَوْرِرْتْ منهم مولاي علي بن حفيظ نايت حمد أيوسف ومولاي

يوسف بن محمد نايت حمد أيوسف كذلك مولاي إبراهيم بن محمد نايت ناصر، أنهم شهدوا علينا شهادة الطوع والرضى منهم أن نبوءة الماء يعني يوم الأحد قد اشتركوا ذلك مع أهل الزاوية البرانية وأيْتْ لَحْسَنْ أبُو زِيدْ وأهل تِمْكَسْلِينْ كلهم في ماء الساقية المضافة للزاوية واليوم المذكور في فوقهم كلهم اتفقوا على ذلك واشتركوا ذلك شركة صحيحة تامة وأيت اعْلِي أحْسَيْنْ كذلك قد دخلوا معهم في ذلك الماء والزاوية الناصرية كذلك تدور عليهم دولة على حسب العادة بينهم هكذا ما أدوا به عليها من غير زيادة ولا نقصان بعد إذنهم وتوديتهم والكل بحال يتم به الإشهاد وممن حضر لذلك جماعة ءال امعياش منهم الشيخ مُحْ بن الحاج نيت المسعود والشيخ مُحْ أعز والشيخ محمد نيت لخليف والشيخ إبراهيم أَعَدٌ نايت القاضي والشيخ حْمِيدْ نايت حَدٌّ أيشوا والحاج نيت الوافي وغيرهم يطول ذكرهم بتاريخ أواسط صفر من عام 1247 عبيد ربه تعالى عبد السلام بن الحسن الدادسي لطف به».

تكمن أهمية هذه الوثيقة أولا في كونها تتعلق بنفس المنطقة التي همتها الوثيقة السابقة مع اختلاف في الأطراف عدا طرف واحد وهو زاوية مولاي بوعمران على الضفة اليمنى لوادي دادس في سافلة القبائل الأخرى التي يعنيها الأمر.

ثانيا أنها تؤكد أن مشكل الماء ظل مزمنا في هذه المنطقة بشكل حاد أدى بالأطراف المتنازعة عليه بإقرار حقوقها في ذلك الماء عن طريق الكتابة ضمانا لاستمرارية تلك الحقوق وإظهارها علانية كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

ثالثا أن أصل النزاع ربما كان يعود إلى شق ساقية جديدة نعتتها الوثيقة «بالساقية المضافة إلى الزاوية البرانية» التي

هي زاوية مولاي بوعمران، وشق قناة جديدة مرتبط باستصلاح أراضي جديدة. وهذا الأمر من شأنه أن يخلق النزاع علما بأن نفس كمية الماء لا تزيد أهمية بل كانت ربما في تناقص لا سيما في فصل الصيف بفعل التبخر وكذا الضياع في جريانها قبل أن تصل إلى الأراضي التي يراد سقيها.

الوثيقة الثالثة : مؤرخة في 25 جمادى الأولى عام 1350 هـ/ 1931 م.

وهي كذلك تهم نفس المنطقة التي همتها الوثيقتان الأولى والثانية، إلا أنها تختلف عنهما في الصيغة إذ هي من النوع الذي يمكن إن نسميه شهادة إثبات حق بعد أن قام طرف باغتصابه لطرف آخر، وهكذا جاء فيها ما يلي : "الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله.

فالذين يشهدون به عليّ وعلى أنفسهم قبيلة الشرفاء أيت بعمران والحسن ابزيد منهم مولاي حمد بن الحسن نيت بعمران ومولاي الحسين بن علي نيت علي ومولاي الحسن أرح ومولاي حمد بن الحسين نيت علي ومن أيت لحسن أبزيد مولاي احم وسيد محمد بن إبراهيم نيت موسى وسيد محمد بن حمد نيت موسى بّ عسين وسيد محمد بن الحاج نيت الحاج ومولاي حميد أحم وسيدي محمد بن عبد الرحمان نيت الحاج ومولاي احمد بن علي نيت بّ عسين ومولاي الحسن اعلي نيت يوسف في گدية الحمراء شهادتهم لله لا ربًا غيره ولا معبودا سواه اليوم في الدنيا وغدا في الآخرة في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أنهم قالوا بلسانهم وتحقيقهم وسمعهم وأبصارهم أن يوم الأربع في ماء سقية الزوية التي كان فيها في أيت أدنار فهو متاع أهل تِمَسْكَلْتْ الفوقانية ويوم الخميس فيها يعني في

سقية المذكورة فهو متاع أهل تمسكلت التحتانية ليلهما ويومهما. وحققنا ذلك منذ ما عقلنا إلى الاءان، وما فعلوا لهم أيت عْلِي أَحْسَيْنْ في ذلك إلا الظلم والدرع بعدما استرعى عليهم وفعلوا معهم الغوث مرارا بعد مرارا واختصموا على ذلك حتى ما عرفوا كلامهم كيف يكون وصبروا بالدرع. وهذا ما شهدوا به علي بلا زيادة ولا نقصان ويطلبون أهل تمسكلت لأيت علي بن حسين الشريعة المحمدية ومنعوها لهم بالتفتيف ويرجعون لهم للدرع بمقالة أهل الأحكام وهذا ما قالوا بلسانهم بلا [زيادة] ولا [نقصان] وفي 25 يوما من جمادى الأولى عام 1350 عبيد ربه محمد بن محمد الكهفي وقته بزوية أبي عمران لطف الله به ءامين.

ويحضران للاسترعى بينهما في ذلك».

أضاف نفس الناسخ بخط مغاير في أسفل الوثيقة ما يلي

«الحمد لله وحده.

وشهد الشريف مولاي الحسن نيت حدوا واعمر وأخيه مولاي عبد السلام كلاهما في گدية الحمراء أنهما تبعوا الشهود المرسومين أعلاه في شهادتهم ومقالتهم بلسانهم وتحققهما. وهذا ما شهدوا به علي بلا [زيادة] ولا [نقصان] وفي نصف من جمادى 2 عام 1350 عبيد ربه مكرر اسمه أعلاه وفقه الله».

وعلق فقيه آخر على ما ورد في الوثيقة بما يلي :

«الحمد لله بينة ءال تمسكلت مقدمة على بينة أيت علي وحسين شرعا لأنها مثبتة والمثبتة مقدمة على المنفية ومن حفظ حجة على من لم يحفظ والله أعلم محمد بن السعيد».

يتضح جليا من معطيات هذه الوثيقة أن مشكل الحق في

استغلال الماء الجاري (أي ماء السواقي) زاد تعقيدا بمرور الوقت في نفس المنطقة التي همتها الوثيقتان السابقتان، ذلك أنه ما أن تخلى قصر أيت أدينار عن حقه (نوبته) في ماء ساقية زاوية أيت بوعمران الذي هو يوم الأربعاء أسبوعيا، حتى انبرى قصر أيت عْلِي وَحْسَيْنْ واغتصب ذلك الحق الذي - حسب الوثيقة - كان يستغله سكان قصر تمسكلت الفوقانية. وقد كان الأمر سهلا بالنسبة للقصر الغاصب لكونه يوجد في عالية القصر المعتدى عليه. غير أن الوثيقة لا تتحدث عن الظروف التي تخلى فيها قصر أيت أدينار عن حقه في ذلك الماء لصالح قصر تمسكلت سالف الذكر. فهل معنى ذلك أن قصر أيت أدينار لم تعد له وقتئذ أراضي سقوية في تلك الساقية ؟ أم أن ذلك راجع لأسباب أخرى ؟ وهذان السؤالان سيظلان بدون جواب ما لم تتوفر معطيات محلية جديدة.

ومن جهة أخرى تؤكد نفس الوثيقة على حدة النزاع بين الطرفين مرارا، سيما وأن الطرف المعتدي تمادى في ذلك ولجأ إلى استعمال القوة (ويرجعون لهم بالدرع بمقالة أهل الأحكام). ومن المحتمل أن يكون أيت علي وحساين ممن قاموا بذلك التعدي لشعورهم بالقوة علما أن أحد أفراده هو الذي كان شيخا على قبائل أيت أربعمائة في ذلك الحين وهو الشيخ محمد بن لحسن نيتْ عْلي وحْسايْن الذي عينه التهامي الكلاوي شيخا على تلك القبائل بعد عزله للشيخ سيدي إبراهيم نيتْ مْحَمْدْ أُعْلي من قصر أيت أدينار والشيخ حَمّو أوعْلي نَيْتْ أوقْديمْ من قصر أيْتْ اعْمومْ الذي كان شيخا على الفرقة الأخرى من أيت أربعمائة. وهكذا تقوى جانب الشيخ محمد نَيْتْ عْلي وحْسايْنْ بجمعه لشياخة أيْتْ أربَعمِايّة التي كانت مقسمة إلى

فرقتين.[8] وهذا المعطى السياسي - في نظري - كان كافيا لأن يحضّ سكان قصر أيت علي وحساين للقيام بما قاموا به، علما بأن الحق الذي اغتصبوه كان يستفيد منه في السابق قصر أيت أدينار الذي كان ينتمي إليه الشيخ المعزول. ويمكن اعتبار عملهم هذا هو إلى حد ما انتقام له وإشعار القبائل الأخرى بمدى القوة السياسية التي أصبحت لقبيلتهم.

إجمالا، يمكن القول، استنادا إلى ما تقدم من معطيات تاريخية، أن أزمة الماء في وادي دادس كانت قائمة باستمرار نظرا لوقوعه في منطقة جغرافية شبه صحراوية سمتها الأساسية قلة التساقطات والتعرض المستمر للتأثيرات الصحراوية الجافة. ويبدو واضحا أن هذه الأزمة كانت تزداد استفحالا كلما ازدادت حاجة السكان إلى الماء، لا سيما في فترة انتعاش النشاط الفلاحي التي شكلت حركة استصلاح أراضي جديدة مظهرا لها. وهو ما تلمح إليه الوثيقة الثانية. وإلى جانب ذلك كله، فإن تلك الأزمة كانت تزداد حدة وتعقيدا كلما جد حادث سياسي في المنطقة كان يؤدي إلى إخلال في التوازن السياسي القائم، مما كان مدعاة ومناسبة للسطو على الماء واستغلاله بالقوة. وهذا الأمر هو ما تثيره الوثيقة الثالثة.

ومن السهل جدا أن ندرك أن وضعية متأزمة كهذه قد جعلت الفلاحة في دادس تشكو مرارا النقص في الماء، فحَدّ ذلك من إمكانياتها ومردوديتها الشيء الذي ترتب عنه بالتالي خصاص في إنتاج الحبوب. وللحدّ من هذا الخصاص كان الناس يضطرون

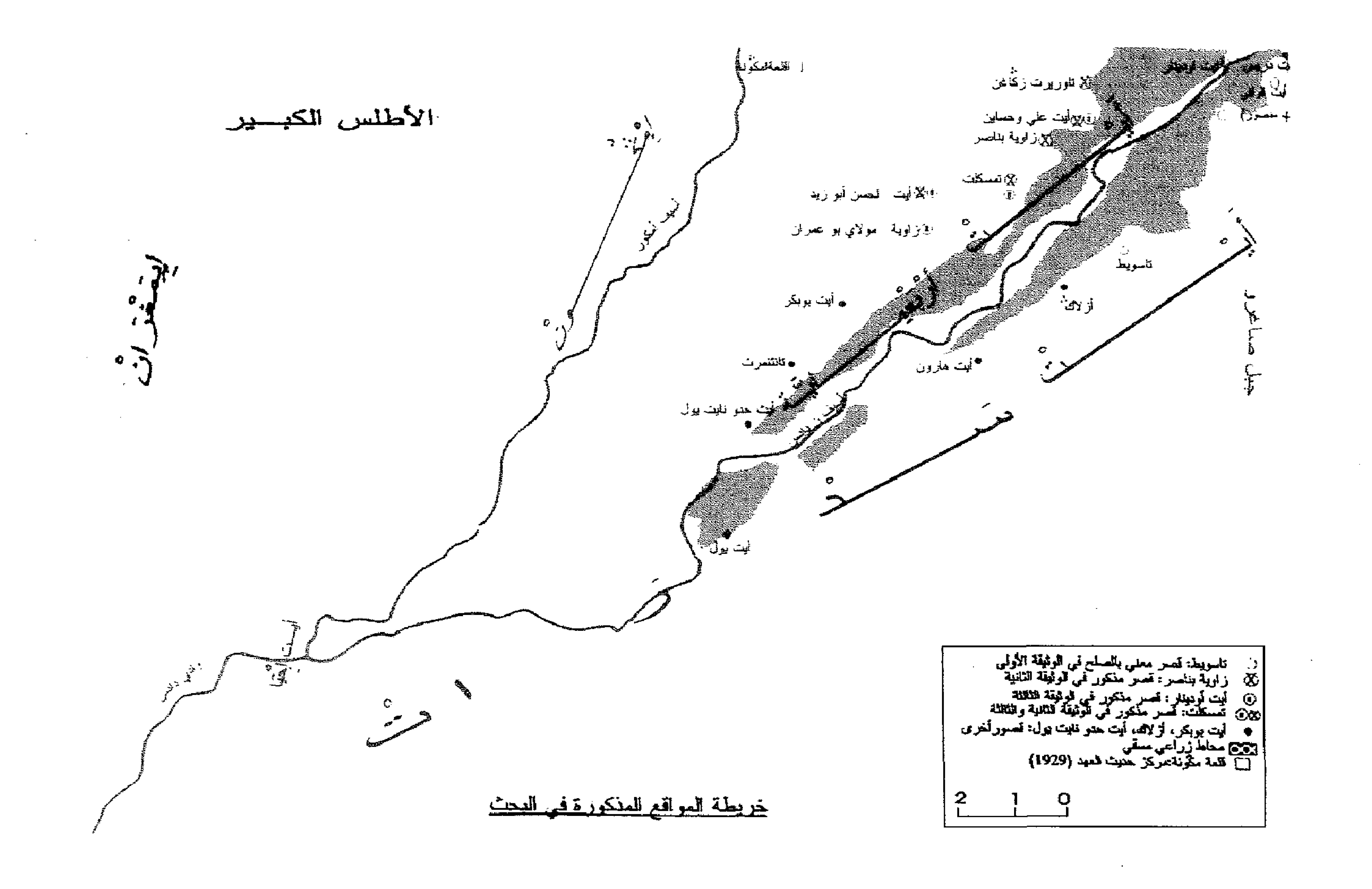
---

8 - هذه المعلومات جمعتها من عدة روايات شفوية مما يؤكد صحتها وهي معروفة لدى الخاص والعام.

إلى جلبها من مناطق أخرى إما بواسطة مقايضة ما تنتجه منطقتهم من فواكه (خاصة التين) أو بواسطة النقد بعد بيع تلك الفواكه يابسة في الأسواق التقليدية التي كان الدادسيون يتعاملون معها في الماضي مثل دمنات ومراكش.

وما هو جدير بالإشارة أيضا هو، أن جل العيون (إغبولا) المعروفة في دادس قد نضبت، في الوقت الحالي، بفعل توالي سنوات الجفاف، مما أدى بالسكان إلى حفر عدة آبار في كل مكان إلى درجة أن كل منزل لا يخلو من بئر لتلبية ليس فحسب الحاجيات المنزلية، بل أيضا لري الأراضي المستصلحة حديثا، وقد ترتب عن ذلك، بالطبع، استغلال مفرط وعشوائي للفرشة الباطنية القريبة التي تم استنزافها، وقد ساهم في ذلك انتشار الكهرباء وآلات الضخ الجديدة.

وهكذا ظل مشكل الماء في دادس مطروحا إلى يومنا هذا وسيظل كذلك لأنه مشلك بنيوي يحتاج إلى دراسة علمية دقيقة تأخذ بعين الاعتبار كل المعطيات الجغرافية والتاريخية والسوسيوثقافية للمنطقة.



خريطة المواقع المذكورة في البحث

الحمد لله وحده [illegible] سيدنا محمد وآله

[illegible] الفقير الشيخ الكامل والولي الصالح سيدنا ومولانا

الشيخ عبد الله بن حسين نفع الله به بين الشرفاء الاطيبين والسادات

الكاملين اولاد سيدنا ومولانا السيد [illegible] عمران نفع الله بهم

[illegible] اهل تسوكت واولاد منصور وهو ان يجعلوا

سدا واحدا يشتركوا في السافيتان ويقسمون الماء بينهم

انصافا جهة لاولاد سيدنا ومولانا [illegible] عمران [illegible] في الساقية

[illegible] لاهل تسوكت واولاد منصور [illegible] في الساقية بحيث

[illegible] بهذا الامر ولا غيره ابدا [illegible] الدهر [illegible]

[illegible] بالله [illegible]

الرضى من الجانبين [illegible] وشهد [illegible]

[illegible] الاشهاد [illegible]

ذلك كله [illegible] الولي الصالح والشيخ الصالح السيد

عبد الله المذكور [illegible] احد وثمانين ومائة

وألف [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الوثيقة الأولى: مؤرخة في أواسط شهر شعبان عام 1181 هـ / 1767م

الحمد لله وحده   يوسف   والصلاة والسلام على رسول الله

ملك الله بن منصور بن علي وعلي ابنيه فيلت الشريف واحمد وابنيه عمران وابنه الحسن ابنه منهم مولاي
محمد بن الحسن بنت عمران ومولاي الحسين ابنه بنت يعلى ومولاي الحسن ابنه ومولاي محمد بن الحسين بنت يعلى
وربيب الحسن ابن مولاي احمد وسيدي محمد بن الرحمن بنت موسى وسيدي محمد بن محمد بنت سيدي [illegible]
وسيدي محمد بن الحاج بنت الحاج ومولاي محمد احمد وسيدي محمد بن عبد الرحمن بنت الحاج ومولاي محمد بن علي
بنت [illegible] ومولاي الحسن ابنه بنت يوسف في جديدة الحمراء يشهدون انه لله الا هو لا غيره ولا
معبود سواه في البيع في الدنيا وغدا في الاخرة في بيع للبيع مال ولا منوه الا من اتى الله بقلب
سليم انهم فالوا بلسانهم وتحقيقهم وسمعهم وابطالهم ان بيع الاربع في ملك سفينة الزريبة التي كان
[illegible] فدانين بحوث [illegible] اهل تمسكلت العبدلانية وبيع الخميس [illegible] في سفينة
المذكورة بحوث [illegible] اهل تمسكلت التحتانية ليلهم ونهارهم من قبل ذلك منعهم من
الاولين والاخرين وما جعلوا لهم اي حظ في ذلك الا الظلم والتعدي بعد الشرع
عليهم وبعدوا معهم الفوت مرارا بعد مرارا واخفضوا على ذلك حتى ما من [illegible] كلا مع كيف
يكون وصبروا بالله رب [illegible] ما شهدوا به على [illegible] زيادة ولا نقصان ويطلبون اهل تمسكلت
[illegible] الشريعة المحمدية ومنعوهم لهم بالتعقيب ولم يجدوه لهم للذرع بمقالة
اهل الامسكلت وهذا ما قالوا بلسانهم بلا ولا [illegible] بيوسف من جمادى الاولى عام 1350 [illegible]
[illegible] القطعي وفقه [illegible] ابن عمران الشريف [illegible]

الحمد لله وحده وبحضوران للاستدعين بينهما في ذلك

ويشهد الشريف مولاي الحسن بنت [illegible] وأخيه مولاي عبد السلام
[illegible] في كيفية الحمراء انها تبعد الشهود [illegible] اعلاه في شهادتهم
[illegible] بلسانهم وتحقيقهم وهذا ما شهدوا به على بلا ولا وجه
من جماده عام 1350 [illegible] عبد ربه [illegible] وفقه الله

الحمد لله
الحمد لله بيتمه ان تمسكلت [illegible]
[illegible] شهد انهما [illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible] والله [illegible]

الوثيقة الثالثة : مؤرخة في 25 جمادى الأولى عام 1350هـ / 1931م

الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد وآله

ليعلم الواقف على هذا الرسم أن الشرفاء يعني آل تورزت منهم مولاي علي
بن حبيب نايت حمو أبو يوسف ومولاي يوسف بن محمد نايت حمو أبو يوسف كذلك ومولاي
ابراهيم بن محمد نايت ناصر أنهم شهروا عليه بشهادة العموم والرضى منهم أن نوبة
الماء يعني يوم الأحد قد اشتركوا ذلك مع أهل الزاوية البرانية وايت لحسن أبو زيد
وأهل تمكنيليس كلهم في ماء الناضية المفاجئة للزاوية واليوم المذكور [illegible]
كلهم اتفقوا على ذلك واشتركوا ذلك [illegible] مجهول نايت [illegible] وايت [illegible] كذلك
وقد دخلوا معهم في ذلك الماء والزاوية الناصرية كذلك [illegible] وعليهم دولة على
حسب العادة بينهم هكذا أداوا به عليه من غير زيادة ولا نقصان [illegible]
[illegible] والكل بحال يتم به الإشهاد ومن حضر لذلك جماعة من آل [illegible]
منهم الشيخ محمد بن الحاج نايت السعود والشيخ محمد أعمي والشيخ محمد نايت لخليفة والشيخ إبراهيم
أعلي نايت القاضي والشيخ حمو نايت حدا بنسو والحاج نايت [illegible] وغيرهم
يعرفون ذكرهم بتاريخ أواسط صفر عام 7 و247 [illegible] عبيد ربه تعالى محمد [illegible]

الوثيقة الثانية : مؤرخة في أواسط صفر عام 1247 هـ / 1831م

من مظاهر التغذية بوادي دادس :

استهلاك بعض النباتات*

تشكل التغذية مظهرا من مظاهر التميز الحضاري لارتباطها الوثيق بالجغرافية والتاريخ والاقتصاد والثقافة. لذا تتباين مظاهرها وموادها من منطقة إلى أخرى سواء على الصعيد الوطني أو الدولي. وإذا ما بحثنا في هذا الأمر بالنسبة لبلد كالمغرب نجد أن مناطق جنوب شرقه عموما ووادي دادس خصوصا لها تميز واضح في هذا الباب بالنظر إلى استهلاك سكانها لحشائش ونباتات معينة. ومداخلتنا هذه ستقوم برصد أهم هذه النباتات ودورها في التغذية وذلك انطلاقا من تحريات ميدانية.

ولمقاربة هذا الموضوع الهام لا بد من التفريق بين النباتات التي يقوم الإنسان بزراعتها وبين النباتات التي تنمو بشكل طبيعي في الأحواض المائية وفي البراري.

وإذا كان الفلاح في منطقة دادس يقوم بزراعة نباتات متعددة فإن الفَصِّيْتْ أو الفصة تأتي في مقدمة النباتات التي يتعهدها ويرعاها بعناية لما لها من دور أساسي في تغذية ماشيته. وهذا المنتوج انتشرت زراعته بهذه المنطقة منذ تاريخ يصعب تحديده. والفصة هي البرسيم الذي يُعطَى للبهائم إما غضا (أخضرا) في فصل الربيع والصيف أوقتا (يابسا) في فصل الشتاء. أما إنتاج الفصة بدادس فيكون بين شهريْ أبريل ونونبر، وهي الفترة التي يكون فيها المناخ معتدلا وحارا. أما

* بحث قيد النشر.

شتاءا فإن هذا الإنتاج يتوقف بسبب البرد القارس الذي تشهده نفس المنطقة.

إن نظرة سكان دادس وغيرهم من سكان المناطق المجاورة إلى الفصة يختلف عن نظرة غيرهم من الناس الذين يعتبرونها برسيما أو طعاما يقتصر على الحيوانات وحدها. فأهل دادس كانوا وما يزالون يتناولونها في تغذيتهم خصوصاً في فصل الشتاء الذي يتوقف فيه إنتاج الفصة المقدمة للبهائم، ذلك أن الصقيع الذي يميز مناخ الوادي خلال هذا الفصل يجعل الفصة لا تكبر وتكون هشة البنية ويحد بالتالي من حموضتها ومرارتها، الشيء الذي يجعلها قابلة للأكل من طرف الإنسان.

والفصة هي مثل أي نبات آخر يمكنها أن تحقق لجسم الإنسان فوائد كبيرة، فهي تحتوي على نسبة عالية من الحديد العضوي الخالص، كما تحتوي على نسبة هامة من الكالسيوم، وهي أيضا غنية بالكلوروفيل الذي هو مفيد في امتصاص روائح الجسم. وبالإضافة إلى ذلك فهي تكتنز فيتامينات مهمة. وهي فوق تلك مدرة للحليب. وإلى الفصة بالذات يعزو العلماء القوة التي تتمتع بها الدواب والأنعام التي تستهلكها كالخيول والبغال والأبقار والأغنام والأرانب وغيرها.[1]

ويتم تناول الفصة في دادس إما غضة خضراء أو بعد طهيها. ذلك أنه بعد قطفها وتنقيتها من كل ما قد يعلق بها من شوائب، وبعد غسلها بالماء تملح وتصبح جاهزة للأكل، أما تحضيرها بواسطة الطبخ فيكون على الشكل التالي :

---

1 - بتصرف عن الدكتور صبري القباني في كتابه : *الغذاء لا الدواء*، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 18، نيسان (أبريل) 1985، ص. 229 - 230.

- تنقيتها من الشوائب ووضعها في كسكاس وتطبخ بواسطة الفوار، وبعد ذلك تعصر لتتخلص من مرارتها. وبعدها توضع مرة أخرى في القدر وتطبخ من جديد مع مواد أخرى كبعض الخضر (مثل اللفت والجزر) واللحم والتوابل وشيء من الزيت. وفي حالات أخرى يمكن طبخها دون أية إضافات أخرى حسب المستوى الاجتماعي لكل عائلة. وبعد عملية الطبخ الثانية توضع فوق الكسكس المحلي المسمى «أمركاس» وهو كسكس رطب يصنع من دقيق الذرة المنتجة محليا، وهو ذو طعم لذيذ، يؤكل ساخنا. ووجبة «أمركاس» هذه، هي الوجبة المفضلة في دادس خاصة في العشاء خلال فصل الشتاء نظرا لقوتها الحرارية العالية التي يكون الجسم في حاجة إليها أثناء الليل القارس.

ويتم تناول الفصة أيضا مع نوع آخر من الكسكس يسمى «إفْنُوزْنْ»، وهذا الكسكس هو الآخر يصنع من دقيق الذرة، ويكون حبه متوسط الحجم، يخلط مع قدر معين من الفصة المطبوخة، مضافا إليه أوراق البصل والفلفل المفروم وشيء من التوابل - حسب الأذواق - ويخلط ذلك كله مع شيء من زيت الزيتون. وللإشارة فهذا الكسكس عادة ما يفور ثلاث مرات - على الأقل - ليصبح بعدها صالحا للأكل. وهو الآخر ذو طعم لذيذ جدا.

ومن الخضر التي يعتني بها الفلاح في دادس اللفت الذي انتشر استهلاكه بالمغرب كله، لكن سكان دادس يستهلكون أوراقه المسماة عندهم بـ«أفراس» فأوراق اللفت هذه تفور أو تسلق ثم تصفى ويهيأ لها مرق خاثر تخلط معه وتصبح جاهزة للأكل، أو توضع كخضرة فوق طبق الكسكس.

وهناك نبات آخر ينمو في مناطق جنوب شرق المغرب

عموما ودادس خصوصا يسمى الكرنب، وهو ذو أوراق كبيرة وطويلة ذات لون قرفي مائل إلى البياض يؤكل مع الشربة أو الكسكس.

وإلى جانب هذه النباتات التي ماتزال معروفة في دادس ويستعملها الناس في تغذيتهم، هناك نباتات لم تعد منتجة بهذه المنطقة وكان لها دور ما إلى عهد قريب في التغذية، من جملتها نبات يسمى «أسَمْعونْ» أو «تَفْسُوتْ» وهناك أيضا نبات آخر يسمى «إكِكْرْ»[2] توقف إنتاجه في دادس، وهو من فصيلة العدسيات يشبه حَبّه حَبَّ الجلبانة (أو البازلا) لكنه صغير الحجم نسبيا. وكان هو الآخر يستعمل كدقيق في الحساء المعروف محليا بـ«أسكيف».

وإذا كانت ثمار وفواكه بعض الأشجار يتم تناولها في المغرب ناضجة وخضراء، فإن تناولها في دادس في التغذية ربما اختلف عن ذلك، فثمار التين في دادس يتم قطفها وهي لا تزال طازجة وخضراء، وتستعمل كخضرة للطعام مرقا كان أم كسكسا، وهناك من يقوم بتجفيفها والاحتفاظ بها إلى وقت البرد، وهذا النوع من الثمار يسمى «إكُرّانْ»، وتعتبر ثمار ذكر التين المسمى «فُوقْعْ» أجودها طعما.

أما ثمرة الخوخ فيمكن تناولها ناضجة على شكل الفاكهة أو على شكل خضرة بعد طهيها في المرق، ذلك أن أهل دادس

---

2 ـ حسب ب. روزنبيرجي فهذه الكلمة ربما أصلها لاتيني من كلمة Cicero لكنه يترجمها بالحمص وهذا غير صحيح بالنسبة للنبات المعروف في دادس بهذا الاسم، انظر :

Bernard Rosenberger, *Cultures complémentaires et nourritures au Maroc (XV-XVVI siècle)* in Annales, E.S.C 35 année, n° 3-4 mai-août 1980, p. 489:

يقومون بعد نزع نواة الخوخ بتجفيفه في الشمس مدة ثم يحتفظ به إلى فصل الشتاء وإذ ذاك تستعمل كخضرة الطعام.

أما بالنسبة لشجرة المشمش فإن سكان دادس يستهلكون أوراقها الرقيقة في بدايتها وذلك لأغراض استشفائية، وعادة ما يتم تناولها مع «أسكيف» أو الحساء.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فبالإضافة إلى النباتات التي يزرعها الفلاح في دادس ويستعملها في غذائه، هناك نباتات تنمو بشكل طبيعي يستعملها أيضا لنفس الغرض ولأغراض طبية، منها النبات المسمى «تمدجا» وهو كما يدل عليه اسمه بالأمازيغية نبات تفوح منه رائحة عطرة، وهو نوع من النعناع البري ينمو قرب الجداول والأحواض المائية، يستعمل خاصة في علاج الإسهال والبرد. أما طريقة تناوله فتكون إما على شكل مشروب مهيإ على طريقة تهييء الشاي أو عن طريق دق أوراقه في هاووس (مهراز) وتحضر على شكل حشوة للخبز مع بعض التوابل وشيء من الشحم والبصل المفروم.

ومن بين النباتات البرية الأخرى التي يأكلها الناس في منطقة دادس النبات المسمى : «گرنينش» الذي هو النينوفر والمعروف في مصر بعرائس النيل[3]، وهو الآخر نبات ينمو في الأحواض المائية يطفو فوق الماء، تعلوه زهرة بيضاء أو صفراء، وتغوص جذوره في الماء. وهذه الجذور هي التي تؤكل، وهي ذات طعم حلو شيئا ما. غير أن هناك من يأكل النبات بكامله بجذوره وأوراقه وزهرته. وهو كذلك من النباتات الصحية.

---

3 - راجع : R. Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, Librairie du Liban, Beyrouth, 1981, t. II, p. 110.

وهناك نبات بري ثالث مشهور في دادس ومعروف بفعاليته في مقاولة البرد يسمى «أوْجْضَمْ». وهو كذلك نبات ينمو قريبا من الجداول، تكون أوراقه رقيقة شيئا ما وطويلة، تنبسط فوق الأرض، ويتم تناوله بعد جنيه عن طريق طبخه في الحساء أو الشربة المعلومة «أسكيف».

ومن النباتات البرية المستهلكة في دادس أيضا النبات المعروف «بألَمْن»، وهو نبات موسمي يظهر في فصل الربيع خصوصا بعد سقوط المطر، يشبه الجزر في شكله، ذو لحم رطب، أبيض اللون وتغطيه قشرة سوداء عند نضجه. يؤكل طازجا بعد إزالة هذه القشرة. طعمه لذيذ. ويُصنّفُ ضمن النباتات الصدرية، من فوائده مثلا تليين الحنجرة.

ومن جملة النباتات البرية الأخرى المأكولة في دادس، التي تظهر بعد سقوط المطر نبات «ترفاس» المعروف في المغرب كله. لكن «ترفاس» دادس هو من النوع الجيد، يكون حجمه شيئا ما كبيراً، ولحمه رطبا ولذيذ الطعم، يؤكل إما مسلوقا أو في المرق.[4]

وإلى جانب هذه النباتات هناك نباتات أخرى يستهلكها الدادسيون وذلك لأغراض استشفائية كما هو معروف في كثير من المناطق المغربية، منها على الخصوص تبات «فلِيُّو» و«أزُكنّي» الذي هو الزعتر، و«إزري» الذي هو الشيح، و«أسير» الذي هو إكليل الجبل، وغيرها.

إن المعلومات السابقة تستوجب الملاحظات التالية :

---

4 ـ عبد المالك بن عبيد، *الترفاس*، *معلمة المغرب*، ج. 7، ص. 2330.

1 ـ أن بعضا من النباتات سالفة الذكر يتداخل فيها الغذائي والطبي إلى درجة أنه من الصعب التفريق بينهما.

2 ـ أن هذه المواد يستهلكها الغني والفقير، وبالتالي فهي ليست معيارا للتميز الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء.

3 ـ أن هذا النوع من التغذية ربما فرضته طبيعة اقتصاد المنطقة الذي يتسم بالقلة وضعف الإمكانيات الطبيعية (محدودية الأرض القابلة للزراعة، فلاحة مسقية، مناخ حار صيفا بارد شتاء، منطقة معرضة باستمرار للجفاف... الخ).

4 ـ أن بعض هذه النباتات يتميز بمحدودية إنتاجها، خصوصا منها التي تنمو بشكل طبيعي، مما يجعل الاعتماد عليها في التغذية محدودا جدا. وبالتالي فإن دورها في التغذية يظل قليلا إن لم نقل منعدما. ولذلك فإن دورها يظل أساسا طبيا.

5 ـ أن المعرفة العلمية الدقيقة لمكونات هذه المواد كلها هي القيمنة وحدها لإبراز أهمية هذه المواد إن على مستوى التغذية أو على مستوى التطبيب.

heureux avec une progéniture nombreuse qui assurerait la continuité de la lignée.

Le troisième et dernier sacrifice : *Tighersi*

À l'instar du deuxième sacrifice, celui-ci doit avoir lieu à l'intérieur de la nouvelle bâtisse. Le propriétaire égorge lui-même le mouton ou le fait égorger. On asperge de son sang tous les linteaux des portes de la maison. Sa viande doit servir pour la préparation d'un festin auquel on invite les chefs de famille du village ainsi que quelques tolba-s afin qu'ils récitent quelques versets coraniques. À la fin de leur participation au festin, ils invoquent et prient Dieu pour que cette nouvelle demeure et ses occupants soient bénis. Néanmoins, il est à noter que les femmes du village participent elles aussi à cette fête dans une pièce à côté où elles chantent, dansent et s'amusent entre elles. À cet égard, il n'est pas exclu que dans le temps, les hommes et les femmes dansent ensemble l'Ahidous à cette occasion comme ils le font au mariage. D'ailleurs ce n'est pas pour rien qu'on appelle cette fête *tamghra n'tgemmi*, fête pour la maison. Enfin, il est à préciser qu'au moment ou se déroule ce festin communautaire on fait brûler le benjoin (en arabe Jawi). Réputé pour être un parfum de bénédiction, il sacralise par contagion.

Tels sont les rites de construction en usage au Dadès. Ils présentent bien des similitudes avec ceux connus ailleurs notamment en Kabylie. Néanmoins, ils se distinguent par la spécificité de quelques-uns d'entre eux. C'est le cas notamment du rite Isgar qui est un rite spécifiquement féminin. D'autre part, on doit souligner la part grandissante qui revient au maître-maçon au Dadès, dans l'exécution aussi bien du travail que de certains rite, au moment où il n'a presque aucun rôle en Kabylie. Enfin, notons que ces rites sont tombés actuellement en désuétude parce que, malheureusment, l'architecture de terre qui les a vu naître dans cette région, n'a cessé d'agoniser et de reculer dangeureusement depuis deux ou trois décennies.

d'objets ou Isgar (une deuxième et dernière fois) l'immolation du troisième mouton et, enfin, l'invitation des habitants du village et les tolba-s récitants du Coran au banquet collectif préparé pour cette occasion. Qu'en est-il donc de chacun de ces trois rites?

Le second dépôt d'objets *Isgar*

Comme il a été déjà dit plus haut, le rite appelé Isgar est un rite féminin. Mais il diffère du premier en ce sens que la femme du propriétaire ou les femmes de la maisonnée creusent un trou non loin du seuil de la porte principale, à l'intérieur de la maison. Dans ce trou, elles déposent quelques objets qu'elles y enterrent. Ceux-ci se composent, outre quelques grains d'orge, de quelques feuilles de henné et de myrte, d'un peu d'armoise, Izri(8), d'une gerbe de harmel(9) sec ou à défaut d'un peu de ses graines, et d'un œuf. Produits agricoles et botaniques, ces éléments ont la caractéristique d'être des produits de résurrection et de fécondation. Au Dadès, chacun d'eux symbolise une vertu qui lui est propre. Aliment de base autrefois dans cette région, l'orge est symbole d'abondance et de prospérité. En disposer, cela signifie être à l'abri de la disette et de la famine. Produits cosmétiques hautement appréciés par les femmes, le henné et le myrte symbolisent la beauté. L'armoise, Izri, de par son bel arôme et de par sa vertu médicamenteuse, symbolyse la bonne santé. Quant au harmel, grâce à son caractère magique et à ses vertus thérapeutiques, il est synonyme de porte-bonheur. L'œuf, enfin, comme nous l'avons déjà signalé plus haut, signifie fécondation et reproduction. En somme, ces différents produits, de par leurs vertus magiques et sympathiques, servent à présager un bel avenir aux futurs occupants de la maison. Ceux-ci doivent être riches, et vivre

---

(8) Appelé ainsi en berbère ; il s'appelle Chih en arabe, voir *Tuhfat al-Ahbab*, Glossaire de la matière médicale marocaine, publié par H.P.J. Renaud et G.S. Colin, Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1934, n° 456, pp. 193-194.
(9) Pour l'identification de cette plante, voir le même ouvrage de *Tuhfat al-Ahbab*, N° 176, p. 80.

immolation est identique à la première dans sa procédure puisque c'est le maître-maçon qui se charge d'égorger l'animal et de partager sa viande selon la même règle observée pour le premier sacrifice. Le propriétaire, quant à lui, doit inviter ses travailleurs à un repas qu'il offre pour l'occasion. La seule différence avec la première immolation qui n'en est pas une, en fait, consiste à asperger le linteau et le seuil de chaque porte de la maison par le sang de la victime.

Le rite dit *Tafrachte*

Ce rite est accompli par le maître-maçon de sa propre initiative. Il intervient lorsque les murs de la maison s'élèvent à hauteur de cinq branchées, qui est communément la hauteur admise, au Dadès, pour la pose du toit. Son accomplissement annonce solennellement la fin des travaux de la tabya. Pour ce faire, le maître-maçon reste debout au-dessus du dernier luh qui vient d'être achevé et crie : "Ih!" trois fois. Immédiatement, il prononce le nom d'Allah et le répète également trois fois. Manifestement, en prononçant ces deux mots le maître-maçon exprime publiqueement en son nom personnel et au nom des autres travailleurs artisans la reconnaissance à Dieu, le soulagement et la satisfaction qu'ils ressentent après avoir accompli le travail qui leur a été confié par le propriétaire. C'est dire qu'il ne reste à ce dernier qu'à les rémunérer. À ce propos, il est à signaler qu'outre sa part, le maître-maçon doit jouir d'un dixième de la somme globale due par le propriétaire à ses ouvriers. Ce dernier le gratifie d'une récompense qui peut être sous forme d'un coupon de tissu ou d'une quantité de grains.

EMMENAGEMENT DE LA MAISON : TAMGHRA N'TGUEMMI

Assimilé à la fête du mariage, l'emménagement se marque par une célébration publique. Il intervient lorsque tous les travaux sont achevés. Et la maison est ainsi prête pour recevoir le propriétaire et sa famille. Il donne donc lieu à l'accomplissement des derniers rites avant d'habiter. Ceux-ci sont au nombre de trois à savoir : dépôt

deuxième mot la racine GR. dérivant du mot Iguer signifiant le champ. Encore, faut-il préciser à cet égard que l'action de semer les semences s'appelle *taguri n'wamud* d'où dérive le verbe guer Amud : jeter les semailles.

Quoi qu'il en soit, pour ce qui concerne le sel gemme précisons, qu'ayant lui aussi, comme les précédents produits, une vertu nutritive, il est réputé cependant pour être un élément protecteur contre le mauvais œil et passe pour être accommodant avec le génie protecteur.

Par ailleur, une fois qu'il est bâti et achevé, ce premier coffrage voit se hisser sur son faîte une divinité lare qui n'est autre qu'une marmite de poterie que l'on a fait noircir pour l'occasion. Comme cela est connu dans d'autres régions du Haut-Atlas[7], elle sert à chasser le mauvais oeil. Dès lors, elle ne doit plus quitter le chantier. On doit la déplacer sur les nouveaux murs au fur et à mesure que le travail avance. À la fin de tous les travaux que doit subir la nouvelle bâtisse, cette marmite renversée doit être posée soigneusement sur le mur du toit du côté donnant sur la route, c'est-à-dire le côté d'où peut venir le mauvais œil des passants.

LA DEUXIEME IMMOLATION

On procède à un deuxième sacrifice, en l'occurrence un mouton ou un chevreau, lorsque les murs de la maison s'élèvent à hauteur de trois banchées (luh). Au Dadès, ce niveau est généralement, le niveau admis pour la pose des linteaux des portes. Marquant une étape importante dans l'avancement des travaux, cet événement fait l'objet d'une célébration. D'autre part, il offre au propriétaire et à sa famille l'occasion de renouveler, voire de renforcer la sacralisation de leur maison en cours de construction. Il est à noter cependant, que cette

---

7 - En particulier chez quelques tribus de Demnate, voir E. Laoust, *Mots et choses berbères*, réédité par la société Marocaine d'Edition en 1983, p. 26.

avec la même viande, un repas qui est en général un déjeuner auquel il invite les travailleurs artisans. Ainsi, en partageant la même viande, en l'occurrence celle du mouton sacrifié, non seulement la communion se crée entre le propriétaire et ses artisans mais également entre ces derniers et sa famille. La manducation de la même viande crée, croit-on, des liens de sympathie, de fraternité et d'entraide entre les convives(6). Consacrant, en somme, le lieu du travail, ce premier sacrifice consacre aussi les artisans et leur donne ainsi la motivation nécessaire pour mener à bien la tâche que le propriétaire leur a confiée. Enfin, comme on s'est accommodé avec le génie par le sacrifice, celui-ci devient ainsi protecteur du lieu. Ceci permet, en fait, de lancer le travail proprement dit et de donner le premier coup de pioche par le maître-maçon en vue de creuser les fondations.

Isgar ou dépôt d'objets

Appelé localement isgar, dépôt d'objets, ce rite est par excellence un rite féminin. La femme du propriétaire l'accomplit juste après l'achèvement du creusement des fondations. Il consiste à déposer dans le premier coffrage encore vide quelques produits : un peu de lait, un œuf, quelques feuilles de henné et un morceau de sel gemme. Une fois déposés, le maître-maçon se charge de les enterrer au sein de cette première banchée. Hormis, le sel gemme, ces produits frappent par leur caractère agricole, leurs vertus nutritives et magiques servent doublement à renforcer la sacralité qui, désormais, unit la famille et le génie protecteur habitant la maison. Mais tout se passe comme si l'on semait quelque chose qui allait resurgir et féconder. C'est le cas notamment pour l'œuf et le henné. L'acception du mot berbère Isgar permet de faire ce rapprochement. Isgar, est un mot composé de IS et GAR signifiant littéralement ce que l'on jette ou ce que l'on sème dans un champ. D'ailleurs nous trouvons dans le

---

6 - Ed. Doutté, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Ed. J. Maisonneuve, P. Geuthner, Paris, 1984, p. 485).

Il apparaît de ce qui précède qu'au Dadès, la construction de la maison est aussi bien un travail qu'une fête. Elle mobilise plusieurs énergies, et "sacrifices et repas accompagnent les labeurs. Elle est donc un plaisir, aussi bien qu'un devoir. Et c'est une fête publique"[5]. Néanmoins, elle est à la fois un mode de culte public et un mode de culte domestique ou privé. La solidarité communautaire s'y manifeste.

LES RITES PROPREMENT DITS

Ces rites ponctuent l'évolution de l'action technique et en marquent les grandes étapes. Ainsi, on peut relever trois moments essentiels pour leur accomplissement, à savoir : le début des travaux, le milieu et la fin. Les uns et les autres diffèrent selon leur nature, les agents qui les accomplissent et la procédure suivie. Néanmoins, par leur accomplissement, on ne cherche que la bénédiction de la nouvelle demeure. Il convient néanmoins de les décrire selon l'ordre de leur exécution.

Le premier sacrifice : Tighersi

Les habitants du Dadès considèrent que, d'une manière générale, la terre est "habitée" par des génies, *Imzdagh N'wakal.* Par conséquent, il est indispensable, pour eux, avant d'entreprendre quoi que ce soit de s'accommoder avec ces génies. Pour ce faire on doit immoler un mouton sur l'emplacement désigné pour l'édification de la maison projetée. le maître-maçon se charge de cette besogne. Quand la mise à mort de l'animal est consommée, on asperge le lieu de sang. Au Dadès, comme partout ailleurs au Maghreb, le sang signifie la bénédiction.La viande de la victime doit être partagée à parts égales entre les travailleurs artisans et le propriétaire. Mais, il faut remarquer qu'en plus de sa part, le maître-maçon doit jouir de la tête et de la peau de l'animal immolé. À cette occasion, le propriétaire prépare

5 - R. Maunier, *Les rites ....*, p. 14.

En revanche le rôle de l'homme ou du propriétaire s'efface presque complétement. Il se limite à apporter seulement au maître-maçon l'animal qui va être immolé. Quant aux villageois, ils assistent au festin et en deviennent en quelque sorte des acteurs privilégiés. Enfin, à l'instar de la femme du propriétaire, le maître-maçon comme nous l'avons déjà souligné plus haut, prend une part importante dans ces rites.

Manifestement, et contrairement à ce qui se pratique en Kabylie par exemple, au Dadès, nous avons affaire à une spécialisation aussi bien pour le rite que pour les travaux.

Construire, est ici avant tout l'affaire d'artisans professionnels. Aidés certes, par les villageois et le groupe familial pour certaines tâches que nous avons décrites précédemment, ils exécutent l'essentiel des travaux et en assument la responsabilité. Celle-ci découle sûrement du fait que c'est un travail rémunéré.

8 - Enfin, je dois signaler que parmi les rites en usage au Dadès, les tabous sont inexistants. En revanche, quelques abstentions existent. Ainsi, pour des raisons religieuses on s'abstient de travailler le jour du vendredi, jour sacré chez les Musulmans. Il en est de même pour les autres fêtes musulmanes : fête de l'*Aïd as-saghir* ou fête de rupture du jeûne du Ramadan, fête du sacrifice du mouton ou l'*Aïd al-Kabir*, fête du *Mouloud* ou la Naissance du Prophète et fête de l'*Achoura*.

Il est aussi d'autres raisons qui font que l'on s'abstient de travailler. Il s'agit notamment des raisons climatiques. En effet, étant dans une vallée où l'hiver est très rigoureux, on doit s'bstenir de travailler pendant cette période de l'année surtout au cours de la partie la plus redoutée que l'on nomme *Lyali*, bien connue au Maroc. C'est une période de quarante jours allant du 11 décembre au 20 janvier. Toutefois, si le froid persiste au-delà, la période de cette abstention se prolonge.

matériaux et de matériels, pierres, poutres, planches (pour servir de banchée), pioches, houes, couffins, cordes etc...

Pour ce qui est de la participation communautaire, elle s'effectue et se manifeste au moment où l'on veut préparer la terre qui va servir de matériau de construction. Ceci consiste essentiellement à faire arroser l'endroit qui va servir de carrière. Pour ce faire, les gens du village, *Igherm*, hommes et femmes, jeunes et adultes, se munissent chacun d'un récipient, seau ou cruche. Ceux-ci servent à amener l'eau à la terre que l'on va utiliser pour la construction. L'eau est prise soit de la *saguia* qui passe dans les parages, soit carrément de l'oued s'il est tout près. Cet arrosage de la terre se fait habituellement dans l'après-midi (entre 15h et 16 heures). Rythmé par le brouhaha et les youyous des participants, il s'achève par un banquet collectif qui n'est autre qu'un plat de couscous. Cette manducation communautaire du couscous, croit-on, non seulement crée des liens de solidarité entre les participants mais aussi apporte la bénédiction à la future demeure.

Enfin, la participation des artisans professionnels est active dans l'exécution du travail. Ceci va à l'encontre de l'adage qui veut que "l'avis du maître de maison prévaut sur celui du maçon"(4). Apportant leur savoir faire, maçons, charpentiers et menuisiers assument pleinement leur rôle qui ne se limite pas seulement à donner des conseils au propriétaire.

7 - Comme il a été dit plus haut, le rite est collectif, ces trois groupes dont nous venons de parler, à savoir : la famille, les habitants du village et les artisans professionnels, y prennent part activement.

Ici, au Dadès, la femme joue un rôle primordial dans l'exécution de certains rites que nous qualifions de féminins. Nous y reviendrons.

---

4 - Mohamed Ben Cheneb, *Proverbes arabes*, 8 III, p. 60, N°2048 : cité par R. Maunier, *Les rites* ...., p. 13, note.

néamoins, les actes techniques s'associent aux actes liturigiques. Car ici, comme ailleurs, on considère que s'il est nécessaire de construire la maison, la bénir l'est également. "D'où deux sortes de gestes parallèles, pour l'effet matériel, et pour l'effet spirituel"[2].

2 - Ces actes, il est vrai, sont publics, mais à la différence de ce qui est connu ailleurs, certains rites ont un caractère domestique et privé. C'est le cas notamment du dépôt d'objets qui n'est effectué que par la femme du propriétaire ou par les femmes de la maisonnée.

3 - Au Dadès, dans ces actions, les artisans professionnels ne se contentent pas uniquement d'un rôle effacé, comme c'est le cas en Kabylie[3]. Bien au contraire, ils y interviennent activement, surtout le maître-maçon qui devient un acteur de premier plan : il égorge l'animal destiné au sacrifice, il partage sa viande, il enterre les objets jetés dans le premier coffrage, etc...Il est à noter cependant que le maître-maçon accomplit ces rites à la demande du propriétaire.

4 - Tout autre, est le rite qu'accomplit le maître-maçon de lui même. Il s'agit de rite appelé *Tafrachte*, annonciateur de fin des travaux. Nous y reviendrons.

5 - Enfin, outre ces rites privés et les rites accomplis par le maître-maçon, il existe des rites collectifs que symbolisent le banquet du début et celui organisé avant d'habiter la maison.

6 - Dans ce travail lui-même interviennent trois acteurs, à savoir: la famille, les habitants du village et les artisans professionnels. Néanmoins concernés en premier lieu, les membres de la famille effectuent les premiers préparatifs. Ils s'activent à réunir tout ce qui est indispensable pour construire : toutes sortes de

---

2 - R. Maunier, *"Les rites de construction en Kabylie"*, in Revue de l'histoire des religions, t. XCII, n° 4-5-6, juillet-décembre 1925, p. 13.
3 - Ibid.

LES RITES DE CONSTRUCTION DANS LA VALLEE DU DADES (Versant sud du Haut-Atlas central)*

S'étirant entre le piémont du versant sud du Haut-Atlas central et celui du versant nord du Jbel Saghro, la vallée du Dadès est célèbre, entre autres, par son architecture de terre qui est l'une des plus belles du Maroc. Certes, cette architecture a fait l'objet de quelques travaux importants(1), mais ceux-ci se sont limités à l'étude du problème de son origine historique, à sa technique et à son esthétique laissant ainsi de côté l'étude des rites qu'elle a engendrés. La présente communication veut en présenter, pour la première fois, un tableau descriptif, d'après une enquête que nous avons récemment menée sur place.

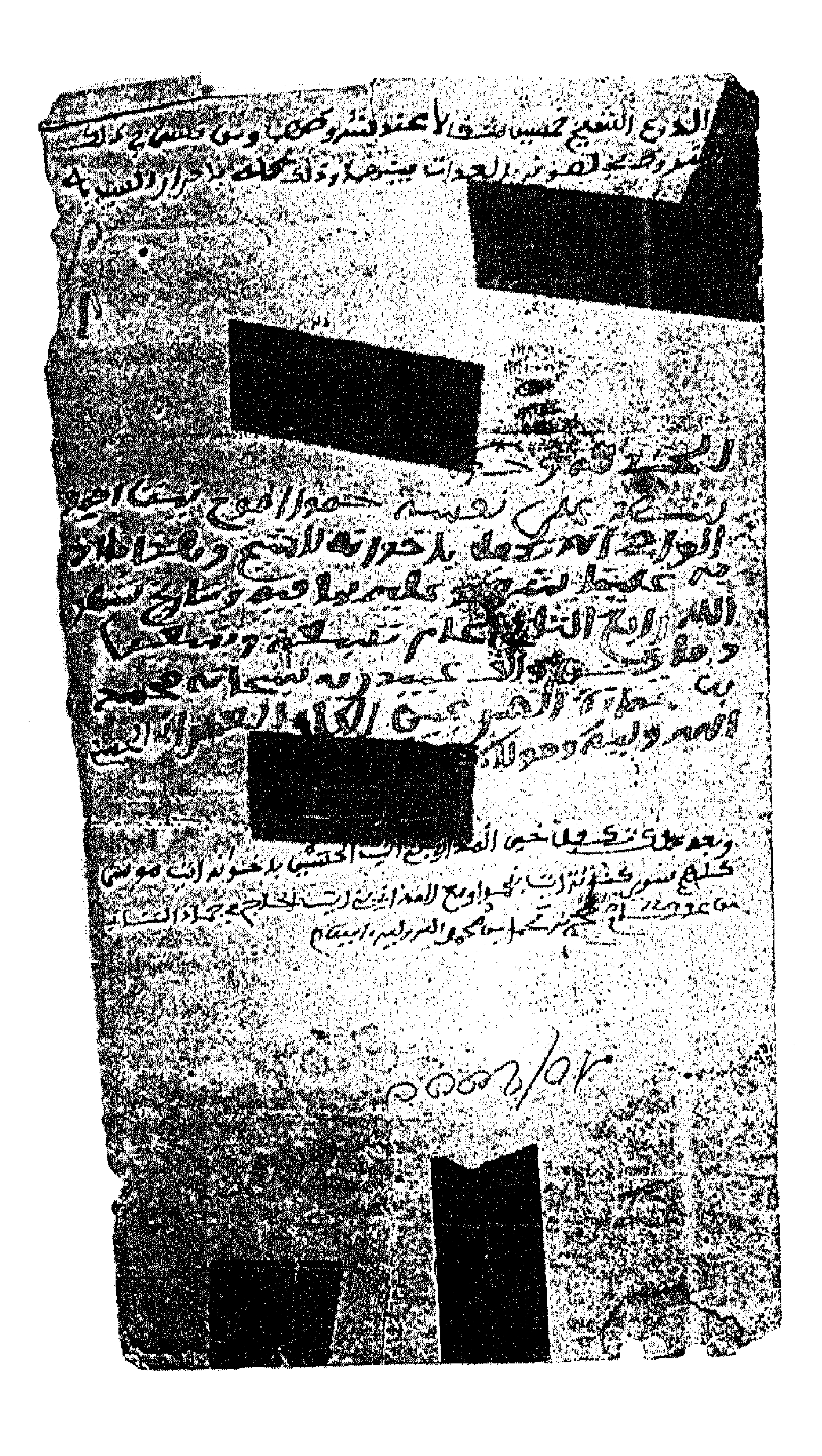
Avant de décrire ces rites proprement dits, il sied de faire les remarques suivantes :

1 - Au Dadès, comme ailleurs, la construction de la maison est une action commune où se conjuguent l'effort familial et celui de la communauté villageoise. C'est la fameuse entraide collective, la "touiza" bien connue au Maghreb. D'autre part, cette action donne lieu à l'accomplissement d'un certain nombre de rites soit collectivement, soit séparément. Dans leur accomplissement,

---

* - Article publié in L'Architecture de terre en Méditerranée, Publications de la Faculté des Lettres de Rabat, serie colloques et seminaires n° 80, 1999, pp. 311-318.

1 - Citons à titre d'exemples, R. Montagne, *Villages et kasbahs berbères*, Paris Alcan, 1930 ; H. Terrasse, *Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis*, Paris, Horizons de France, 1938 ; Dj. Jacques-Meunié, *Architectures et habitats du Dadès (Maroc présaharien)*, Paris, Klincksieck, 1962 ; A, Touri et M. Hammam, *"Tradition écrite et architecture : Acte coutumier d'un villagedu Dadès, "Tirigiwt"*, in *Hespéris-Tamuda*, vol. XXIV, 1986, pp. 213-229.



الذي ع الشيخ حبيب [illegible] لا عتق [illegible] وصحب وبني [illegible]
[illegible] العدات [illegible] وذلك [illegible] الشيبة

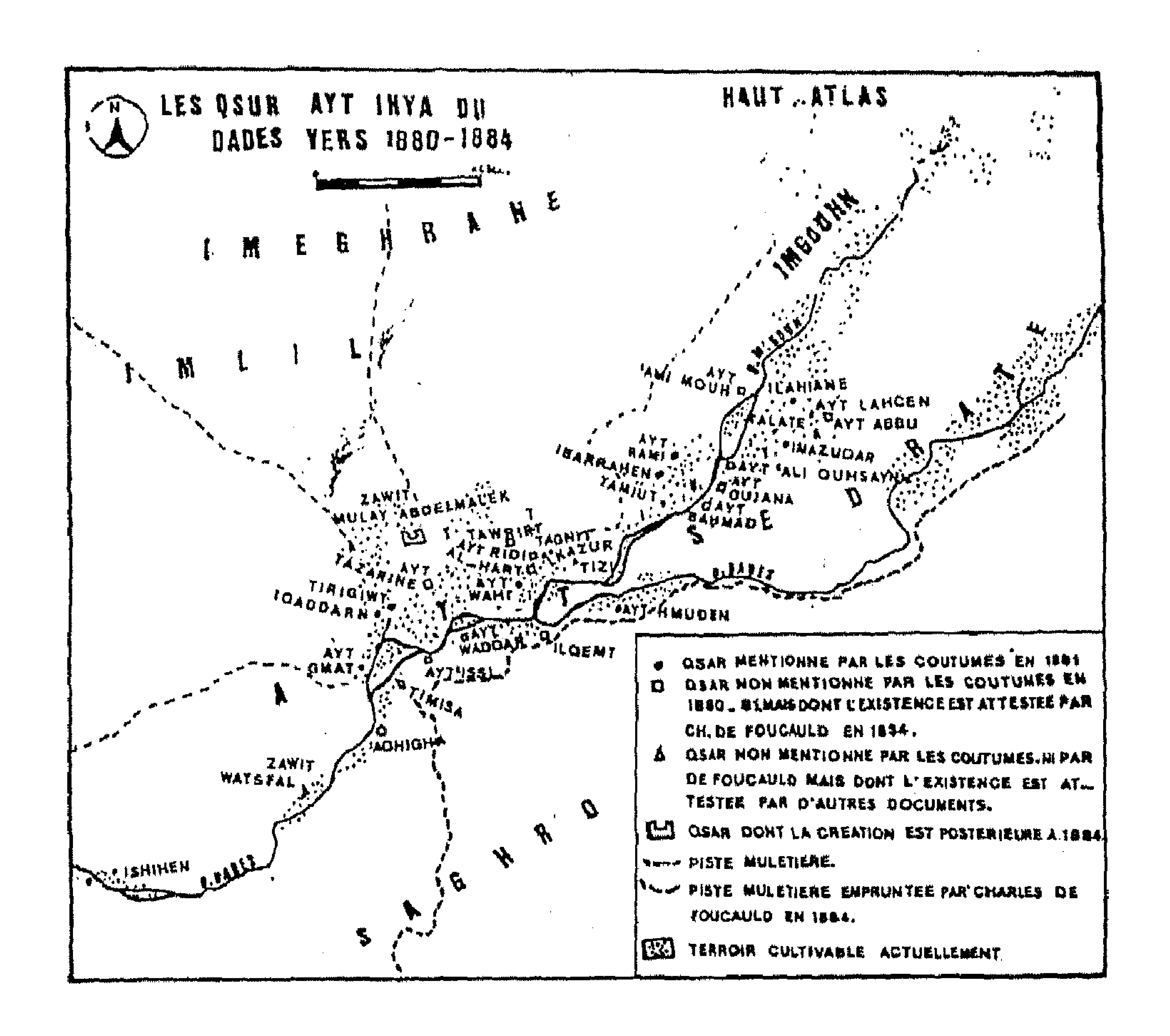
الحمد لله وحده [illegible]
[illegible] على نعمة [illegible]
الواحد الذي [illegible] لا [illegible]
[illegible]
الله [illegible]
وصلى [illegible]
بن [illegible] محمد
[illegible]
[illegible]

وبعد [illegible] الحنفي [illegible]
[illegible] موسى
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] وصلى الله على سيدنا [illegible]

[illegible] [illegible] حجبهم عن [illegible] [illegible]
وجعلوا [illegible] [illegible] وهو [illegible] على [illegible]
[illegible] [illegible] وهو [illegible] تعصيل لكل واحد بالخوة [illegible]
[illegible] تعصيل [illegible] تعصيل [illegible]
[illegible] [illegible] تعصيل [illegible] وتعصيل
[illegible] [illegible] [illegible]
وتعصيل [illegible] [illegible] الدائم وتعصيل [illegible]
[illegible] وتعصيل [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] وتعصيل [illegible]
[illegible] تعصيل [illegible] بالإخوة وتعصيل [illegible]
بالإخوة وابن [illegible] [illegible]
[illegible] تعصيل [illegible]
[illegible] تعصيل [illegible] [illegible]
[illegible] تعصيل بالإخوة [illegible] وتعصيل على
[illegible] بالإخوة [illegible] وتعصيل [illegible]
[illegible] بالإخوة وتعصيل على [illegible] بالبنت
[illegible] وحد تعصيل بالإخوة [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] خمسة وعشرون [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] خمسة [illegible]
[illegible] [illegible] خمسة وعشرين [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible]


LES QSUR AYT IHYA DU
DADES VERS 1880-1884
HAUT ATLAS
IMEGHRANE
IMGOUNN
IMLIL
AYT SEDRATE
SAGHRO
AYT MOUH
ILAHIANE
AYT LAHCEN
AYT ABBU
IMAZUDAR
AYT ALI OUHSAYN
AYT OUJANA
AYT BAHMAD
AYT HMUDEN
ILQEMT
ZAWIT MULAY ABDELMALEK
TAWRIRT
TAOURIRT
TAZARINE
TIRIGIWT
IOADDARN
AYT OMAT
TIMISA
ZAWIT WATSFAL
ISHIHEN
QSAR MENTIONNE PAR LES COUTUMES EN 1881
QSAR NON MENTIONNE PAR LES COUTUMES EN 1880 - 81 MAIS DONT L'EXISTENCE EST ATTESTEE PAR CH. DE FOUCAULD EN 1884.
QSAR NON MENTIONNE PAR LES COUTUMES, NI PAR DE FOUCAULD MAIS DONT L'EXISTENCE EST ATTESTEE PAR D'AUTRES DOCUMENTS.
QSAR DONT LA CREATION EST POSTERIEURE A 1884
PISTE MULETIERE.
PISTE MULETIERE EMPRUNTEE PAR CHARLES DE FOUCAULD EN 1884.
TERROIR CULTIVABLE ACTUELLEMENT

Additif B

Quelque temps après (le nomé)[45] Ha Lmadani Beni Ayt Lhayn s'est porté garant de ses frères Ayt Musa[46], lesquels faisant tous partie du foyer[47] des Ayt Ben Hammu[47bis]. Il s'est porté également garant du (nommé) Lmadani beni Ayt Lhaj[48].

Fait à jumada II de l'an 1299. (Le nommé) Mhammed ben Muhammed en a pris connaissance.

Dieu est son tuteur. Amen.

45 - Mot ajouté
46 -, 47bis - et 48 - Des familles respectivement de mêmes noms continuent déxister dans le qsar de Tirigiwte. Information recueillie sur place -.
47 - Traduction du terme kanunat utilisé par le scribe. Voir le texte arabe.

15- Quiconque blesse un autre, paie vingt-cinq, uqya-s, et le prend en charge comme il est d'usage jusqu'à sa guérison[38].

16- Quiconque ne répond pas à l'appel du cheikh, *kasara da'wata cheikh*, paie vingt-cinq aqaya-s.

Verso

17- Celui qui refuse d'obéir au cheikh, *dra' cheikh*, paie cinquante mitqal-s, ceci a été convenu lors de la conclusion de cet accord. S'il arrive cependant que[39] l'on oublie ces dispositions, on aura recours aux coutumes connues de tous[40]. Et tout cela Si Buha l'a mis par écrit.

Additif A

Louange à Dieu seul

(le nommé)[41] Hmmu U Muh Nayt Ahmid Lwahi[42] déclare qu'il s'est porté garant de ses frères auprès dudit cheikh. Il nous en a fait témoignage, nous qui, pour validation, le paraphons, au mois de Dieu Rabi'II, l'an mille deux cent quatre vingt-dix-neuf, humble serviteur de Dieu, Muhammad ben Amara domicilié actuellement[43] à Sarġin[44], d'origine Amrani Hasani. Dieu est son tuteur et son seigneur. Amen.

---

38 - Mot ajouté.
39 - Termes ajoutés.
40 - Termes restitués.
41 - Mot ajoutés.
42 - C'est-à dire originaire de qsar Ayt Wahi qui se trouve sur la rive droite de l'oued Dadès, tout près du point où l'ouesd M'gun s'y jette.
43 - Termes ajoutés.
44 - Ce qsar existe toujours. Il est sur la rive gauche de l'oued Dadès. Il n'appartient pas aux Ayt Ihyat mais à Iwrtguinne autre groupe de qsur du Dadès -. Voir Foucauld vicomte Charles -, Reconnaissance au Maroc 1883-1884 - Atlas, édité par la société d'éditions géographiques maritimes et Coloniales, Paris, 1888, nouveau tirage 1934, Carte Dadès , échelle 1.250.000 feuille 15.

6- Celui qui, par trahison, a aidé un autre[32] à voler dans le qsar, est passible de cent mithqal-s, et doit restituer la chose volée à son propriètaire.

7- Celui qui casse une jambe est passible de vingt-cinq mithqal-s

8- Celui qui casse la main d'autrui paie douze mithqal-s. Il doit à sa victime la pension alimentaire (d'usage)[33] jusqu'à sa guérison.

9- Celui qui vole (dans la maison d'un autre)[34] paie dix mithqal-s pour chaque porte franchie[35], et restitue ce qu'il a volé.

10- Celui qui ouvre le feu[36] sur un autre paie dix mithqal-s

11- Celui qui n'a pas pu tenir sa promesse[37] envers un autre paie cinquante (mithqal-s).

12- Celui qui crève un oeil à autrui paie cinquante mithqal-s pour chaque oeil crevé.

13- Celui qui casse une dent à autrui paie cinq mithqal-s pour chaque dent cassée.

14- Celui qui gifle un autre, tarš, paie vingt- cinq uqya-s

---

32 - Il pourrait s'agir ici de l'un des habitants du qsar ou de personne étrangère.

33 - Terme ajouté.

34 - Termes ajoutés.

35 - Cette disposition pourrait être comprise de deux manières: d'une part, on pourrait comprendre que le malfaiteur devrait payer dix mithqal-s à raison de chaque porte franchie à compter du portail du qsar. D'autre part on pourrait comprendre que l'amende prévue devrait être payée pour chaque porte franchie à l'intérieur même de la maison visitée.

36 - L'amart est la terminologie utilisée dans ces régions pour désigner le port d'armes à feu. Communication orale -.

37 - Le verbe naqara نقر utilisé dans le texte est un verbe berbère qui veut dire arracher quelque chose surtout les plantes -. Mais il signifie également manquer de parole ou de promesse. C'est ce dernier sens que nous avons retenu dans notre traduction. Communication orale recueillie dans la région.

rendue coupable d'avoir commis un délit, doit être sanctionnée par ledit cheikh conformément aux coutumes en usage chez les Beni Yaḥya[21]. Les voici :

1- Celui qui s'enfuit avec la femme (d'un autre pour abuser d'elle), est passible outre d'une amende de cent mithqal-s[22], de 'Alamatann (?)[23], de Afanig[24] et de Lmabita[25].

2- Celui qui s'est rendu coupable (d'avoir été suborné par la femme d'un autre)[26] doit payer outre une amende de cent mithqal-s, Lmabita[27] et Afanig[28].

3- La même sanction doit être appliquée au meurtrier

4- Celui qui perce (la muraille d'une maison pour voler)[29] paiera cinquante mithqal-s ainsi que Lmabita[30]

5- Celui qui vole (la maison d'un autre)[31] à l'aide d'une échelle est passible d'une amende de cent mithqal-s

---

21 - C'est-à-dire les Ayt Ihya.

22 - Pour ce qui est du problème monétaire au Maroc du XIX° siècle, voir l'analyse de G. Ayache, "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860", Etudes d'histoire marocaine, Ed. S.M.E.R, Rabat, 1979, pp. 97-138.

23 - Terminologie non identifiée.

24 - Afanig désignait une sévère sanction à la mesure d'un délit jugé grave. Elle consistait à offrir un repas à la population du qsar tout entière. D'où sa lourdeur. Nourrir autant de bouches, cela supposait des moyens considérables difficiles à acquérir dans un milieu aussi dur que celui des oasis. Communication orale recueillie sur place -.

25 - Lmabita est une sanction aussi sévère que la précédente. Elle sanctionnait des délits graves tels que le viol, le vol de certains objets de valeur etc. On s'en acquittait en offrant un dîner aux notables de la tribus. De caractère vexatoire, tout comme Afanig, cette sanction se voulait dissuasive. Communication orale -.

26 - Voir la note 19 de l'édition arabe du texte.

27 - Voir la note 25.

28 - Voir la note 24

29 - Voir Ternes ajoutés.

30 - Voir la note25.

31 - Termes également ajoutés.

Išhihen[13] ainsi que des gens de Lkazur[14]. Brahim Nayt Wağzenn s'est porté garant des gens de Tagnite[15]. Haddu Ben Ali s'est porté garant des gens de Tizi[16]. Se sont portés garants de la tribu Tirigiwte[17] Si Buha pour ses frères, Hmid ben Mhammed pour ses frères, Hammu Nayt l'asri pour Ayt Haddu. De la tribu Iqaddaren[18] s'est porté garant Lmadani Nayt Ḫuya Muhammad. Se sont portés garants de la tribu Ayt Gmat[19] Buha u'Addi pour Ayt'Ali u Hammu ainsi que ceux qui leur sont rattachés, Buha Nayt Izdi pour ses frères et ceux qui sont avec eux, Ali Nayt Hammu pour ses frères à savoir les Ayt u'Arab, Muhammad U Lahcen Nayt Taleb pour ses frères, (le nommé) Ali Nayt Lhusayn s'est porté garant des Ayt Hmuden[20]. Et chaque répondant s'est porté garant en tout, de ses frères et de ceux qui sont avec eux. Cette garantie couvre toute corvée taklif ou mobilisation harka. Il a été convenu cependant que toute personne

---

13 - Situés de part et d'autre le long de l'oued Dadès, ils forment un ensemble de petits qsurs à l'extrême sud des Ayt Ihya. De par leurs situation géographique, ils sont voisins du territoire de la tribu Imegranne. C'est la raison pour laquelle ils étaient appelès à jouer localement un rôle important d'autant plus qu'ils surveillaient le passage vers Sagro. Hommes redoutables, leur alliance était recherchée. Communication orale -.

14 - Existe toujours mais actuellement dénommé Tagnite Tamajgalte. Communication orale -.

15 - Avec le qsar précédent, ils constituent ensemble le qsar de Tagnite.

16 - Ce qsar existe toujours. Voir carte du Maroc, 100 000, feuille NHXXIV-2 -.

17 - Voir l'introduction.

18 - Mentionné encore de nos jours voir Carte du Maroc 1.100.000 feuille NHXXIV-2 -. Comme son nom l'indique ses habitants noirs auraient été des potiers. C'est ce que explique sans doute un permanent attachement de quelques familles de ce qsar au travail artisanal en particulier dans le domaine de la construction en terre (pisé) -. En effet, on y relève quelques M'Imin réputès en la matière. Communication orale recueille sur place -.

19 - Existe toujours. Voir Répertoire alphabétique des agglomérations de la zone française de l'empire chérifien classé par tribus et fractions de tribus, d'après le rencensement quinquennal du 8 mars 1936, Imp. J. Thévenin, Rabat, 1941 p?225

20 - C'est le seul qsar des Ayt Ihya qui est sur la rive gauche de l'oued Dadès avant le confluent de l'oued M'goun. Voir carte au 1,100.000, Feuille NHXXIV 2.

Traduction

Louange à Dieu seul, et la prière (sur le prophète)[1], source de clémence. Les membres[2] de la jmâa des Ayt Ihya[3] gens de bien-se sont mis d'accord entre eux afin de décider du bien pour leur pays. Ainsi ont-ils désigné leur cheikh, le nommé Si'Ali Ayt Mhammad[4]- que Dieu le bénisse, Amen- (Il est assisté par) son frère Lhusayn des Beni Tirigiwte[5]. Cependant chaque répondant s'est porté garant pour ses frères. En premier lieu, Qasi ben Mohammad[6] s'est porté garant des gens appartenant à son clan šu'batihi ainsi que de Imzudar[7] leurs voisins. Mohammad u Bubker s'est porté garant des Ilhyane[8]. Išu s'est porté garant des Ayt Lahcen[9]. Ali Nayt Hmad u Isu s'est porté garant des Ibarrahen[10]. Išu Nayt Išu s'est porté garant des Ayt Rami[11]. Lhusayn U'Ali s'est porté garant des gens de Tamjute[12]. Muhammad Nayt Lmqddem s'est porté garant des

1 - Terme ajouté

2 - Mot ajouté

3 - voir l'introduction

4 - Nom de l'un des trois ikhsan qui constituent le qsar de Tirigiwte.

5 - Existe toujours. Il est considéré parmi les plus importants qsur-s des Ayt Ihya. Il aurait été cependant un ancien qsar de Imgunn. Les Ayt Sedrate les y avaient chassés à une date inconnue. Communication orale recueillie sur place -. Voir aussi A. Touri et Hamman, "Tradition écrite et architecture : acte coutumier d'un village du Dadès, Tirigiwt", Hespéris-Tamuda, 1986, pp. 213-229.

6 - Il ne pourit s'agir ici que de l'ancêtre de l'actuelle famille des Ayt ben Qasi du qsar Talat. Communication orale -.

7 - Imzudar étant un qsar haratin-s historiquement "inféodés" au Qsar de Talat et surtout à ses notables que sont les Ayt Ben Qasi. Communication orale -.

8 - Ce qsar existe toujours.

9 - Il se situe non loin du précédent

10 - Il est sur la rive droite de l'oued M'goun.

11 - qsar voisin en amont du précédent.

12 - Qsar voisin en aval du qsar Ibrrahen. Il a été habité, jusqu'à une époque très récente, par quelques familles juives qui ont émigré en Palestine. Communication orale.

Additif B

وبعد ذلك تكفل خي المداني بني ايت الحسين[30] باخوانه ايت موسى كلهم سور كنونه[31] ايت بنحموا ومع المداني بني ايت الحاج في جماد الثاني من عام[32] 1299 صح به محمد بن محمد[33] الله وليه ءامين.

30 - Vocalisation non ajoutée
31 - Ainsi dans le texte
32 - Vocalisation non ajoutée
33 - Ainsi dans le texte.

(9) ـ ومن سرق عشرة مثقالا لكل عتبة ويرد ماطاع

(10) ـ والعمارة عشرة مثاقل

(11) ـ ومن نقر[26] خمسين

(12) ـ والعما خمسين مثاقلا لكل عين

(13) ـ والسن خمسة مثقالا

(14) ـ والطرش خمسة مثاقل

(15) ـ ومن جرح خمسة وعشرون اقية[27] ويعطي من آكل

(16) ـ ومن كسر دعوة الشيخ خمسة وعشرون اقية

Verso

(17) ـ والدرع الشيخ خمسين مثقالا عند شروطهما ومن نسي في ذلك الشروط يخلصونه بالعدات بينهما وذلك كله باقرار السيد بُهَ (28)

Additif A

الحمد لله وحده

شهد على نفسه حَمُّوا موح نيت احمد[29] الواحي انه تكفل باخوانه للشيخ وهذا ما أدَّ (ى) به علينا شهد عليه بما فيه وبتاريخ شهر الله رابع الثاني عام تسعة وتسعين ومائتين وألف عبيد ربه سبحانه محمد بن عمارة الصرغين أصلا العمراني الله وليه ومولاه ءامين. الحسني

26 - Vocalisatio non ajoutée.
27 - Ainsi dans le texte
28 - Vocalisation ajoutée.
29 - Ainsi dans le texte.

الطالب باخوانه وتكفل علي نيت الحسين بايت حمدن[15] وكل وحد تكفل باخوانه ومن تبعهم بكل ماكان من تكليف أو غيره من الحركة وانها بعد اشترطوا بينهما من عمل ذنب أو غيره ويخاصبونه للشيخ المذكور بالعدات بينهما يعني بني يحيى وهو:

(1) - من هرب بالمرأة ويعطي مامة[16] وعلمتان[17] وافنك[18] والمبيتة

(2) - من زاعت عليه المرة (؟)[19] ويعطي ماية والمبيتة وافنك[20]

(3) - من قتل ويعطي كما ذكرنا

(4) - ومن ضرب انقب ويعطي خمسين والمبيتة

(5) - ومن لَوَّحَ تَسْكُلِّيَ[21] لاخر ويعطي مائة

(6) - ومن كسر[22] والقصر ويعطي مائة[23] ويرجع من طاع

(7) - ومن كسرَ رجل رجل خمسة وعشرون مثقالا

(8) - واليد اثني عشر مثقالا ويجر[24] عليه[25] حتى يبرا

15 - Ainsi dans le document.
16 - Ainsi dans le texte
17 - Terne difficilement indentifiable.
18 - Lire Afanig أفنگ
19 - Ainsi dans le texte, mais il semble bel et bien qu'il s'agit du verbe arabe زاغ. Le Scribe a dù omettre de mettre le point sur le غ . Ce qui revient à lire (زاغت عليه المرة) au lieu de (زاعت عليه المرة) qui ne veut rien dire. Alors en corrigeant la phrase on comprend bien qu'il est question de femme de moeurs légères.
20 - Lire Afanig
21 - Vocalisation ajoutée.
22 - Ainsi dans le texte
23 - Ainsi dans le texte
24 - et 25 - Le scribe a mis les points.

الحمد لله وحده وصلى الله على عين الرحمة

اتفقوا جماعة الخير ءال ايت احيا بعـ(ضـ)ـهم[1] على للمصالحة بلادهم وجعلوا شيخهم المبرك[2] عليهم ءامين وهم السي على بني ايت محمد وأخيه الحسين من بني ترجوت[3] بعد تكفل كل واحد بإخوانه من بني قبيلتهم فأول من تكفل بذلك قاسي بن محمد[4] تكفل بأهل شعبته ومع امزودر حوزهم ومحمد أبو بكر تكفل بالاحيان وتكفل إيشوا بايت الحسن وعلى نيت حمد[5] وخي يشوا تكفل بابرحن وتكفل اشوانيت اشوابايت الرامي وتكفل الحسين اعلى بئال تمجوط وتكفل محمد نيت المقدم بإشحن[7] وءال الكزور[8] وتكفل برهم نيت وغزن بئال تگنت[9] وتكفل حدو ابن علي بايت تزي وقبيلة ترجوت تكفل السيد بُه[10] بإخوانه وتكفل حميد[11] بن امحمد بإخوانه وايت حدوا تكفل بهم حموانيت لعسر وقبيلة اقدرن تكفل بهم المدني نيت خي محمد وقبلة ايت جمات[12] تكفل بها[13] أعد بايت على احموا ومن تبعهم وبُهَا نيت زد تكفل باخوانه ومن معهم وتكفل ايت أعْرَبْ وتكفل محمد الحسن نيت علي نيت هَمُّو[14] يعني

---

1 - Ce qui est entre crochets est restitué

2 - Compte tenu de l'originalité historique et philologique du texte, nous n'avons pas corrigé son orthographe

3 - Lire Tirigiwte

4 - Ainsi dans le texte

5 - Ainsi dans le texte

6 - Ainsi dans le texte

7 - Vocalisation ajoutée

8 - Ainsi dans le texte

9 - Lire Tagnite

10 - Vocalisation ajoutée

11 - Ainsi dans le texte lire Hmide

12 - Lire Ayt Gmat

13 - Vocalisation ajoutée

14 - Vocalisation ajoutée.

bien l'accent sur l'autorité souveraine qu'il devait exercer sur les habitants. Cette autorité était, certes, garantie par les répondants de chaque qsar. Pour importantes qu'elles soient, ces coutumes ne pouvaient en aucun cas constituer à elles seules, le recueil coutumier de ces qsurs-s car bon nombre de coutumes restaient orales. Nos coutumes rappelent que, pour les cas de litiges qu'auraient été omis sur la présente liste, le recours aux coutumes anciennes devait être de rigueur[18].

---

18 - Voir article 17 de ces coutumes.

moins la question de l'existance des qsur-s non indiqués, à l'époque où cette coutume a été élaborée. Cependant les connaissances historico-géographiques, il est vrai, quelque peu tardives[14] que nous avons sur cette région, attestent bien l'existence de la plupart des qsur-s actuels des Ayt Ihya. La carte qu'a dressée Ch. de Foucauld trois ans plus tard sur le Dadès est trés significative à cet égard[15]. Ce qui revient à dire que les qsur-s non indiqués tels que Timiša[16], Ayt Waddar, Ilqemt[17], Ayt Ridi, Lhart[17bis], pour ne citer que ceux-là, formaient sans doute un groupe hostile au précédent. Point n'est besoin de rappeller ici que les problèmes envenimant les relations entre les qsur-s ne manquaient pas. Celui de l'eau en était l'un des plus aigus.

L'intérêt de ces coutumes, pour appréhender la société qsurienne, n'en est, somme toute, que plus frappant. En effet, elles nous offrent l'image d'une coutume adaptée à quelques préoccupations d'un groupe sédentaire, celui des qsurs-s du versant sud du Haut Atlas marocain dans une période bien déterminée, celle des deux dernières décades du XIX siècle. Elle nous dessinent également l'image d'une économie rurale en voie de transformation. Les sanctions qui devraient être payées en argent en rendent bien compte. Cela ne veut pas dire pour autant que ces sociètés ignoraient la monnaie jusque là. Enfin, image de marque de la communauté tout entière, le cheikh doit être respecté. Quelques dispositions mettent

---

14 - La documentation écrite en notre possession montre bien que bon nombre de qsur-s des Ayt Ihya existaient déja au XVIII° siècle. C'est le cas notamment de Tirigiwt et de Zawit Atsfat.

15 - FOUCAULD Ch. de -, *Reconnaissance au Maroc 1883-1884*. Atlas, Ed. Sociétè d'éditions géographique, maritimes et coloniales, Paris, 1888, nouveau tirage, Carte Dadès, échelle 1: 250.000, feuille 15.

16 - Où Charles de FOUCAULD a passé la nuit du 22-23 avril 1884, cf Reconnaissance au Maroc, op. cit., p. 215.

17 - Lire. علقمت

17 bis - Voir la carte.

D'une manière générale, nous avons affaire à des coutumes où les questions relatives au droit pénal tiennent une place de choix. La qualification des infractions et des délits est sommairements indiquée. Les sanctions payées sous forme d'amendes varient en fonction de la gravité des violences des coups causés à autrui. Ansi ces coutumes font-elles la différence entre une jambe fracturée, une dent cassée ou un oeil crevé etc... le meurtre est un cas à part. Il est sanctionné par une amende mixte doublement payée en argent et en nature sous forme de deux repas, l'un offert à la tribu tout entière, l'autre à ses dignitaires. La même sanction devait être appliquée au rapt d'une femme.

Non sans intérêt, ces coutumes traitent également des délits commis contre les biens, tels que la violation du domicile ou la complicité pour vol dans le qsar. Pour ce qui est du premier point, la sanction varie selon la manière dont l'acte a été commis. Si l'on perce la muraille, par exemple, la sanction est entièrement en argent. Quant au complice pour vol dans le village, il est sanctionné par une amende de 100 mithql-s en sus de la restitution de l'objet volé. Le vol, quant à lui, est sanctionné par une amende en espèces de l'ordre de dix mithkal-s à raison de chaque porte franchie. Or, il n'est pas indiqué que le compte des portes franchies doit être fait à partir du portail du qsar ou bien tout simplement à partir de la porte extérieure de la maison violée. Mais il y a lieu de croire que cela devait se faire à compter de la porte extérieure de la maison violée.

Enfin, le manquement à l'appel du cheikh(Kasara da'wat al-cheikh), et le refus de se soumettre à son autorité entraînent respectivement l'application de ving-cinq uqya-s et cinquante mithql-s d'amende.

Par ailleurs, passés en revue les noms des qsur-s mentionnés par nos coutumes, il apparaît bien qu'un bon nombre de qsur-s Ayt Iḥya connus encore de nos jours n'y figurent pas. Ce qui suscite au

présentent sous forme d'une suite de 17 articles essentiellement consacrés à la protection des biens et des personnes. Il va sans dire toutefois que les dispositions portant sur le droit criminel y tiennent une place des plus importantes. Les deux derniers articles, en revanche, mettent en évidence l'autorité souveraine qu'a le cheikh sur la communauté des habitants. Les répondants de chaque qsar auprès de lui, doivent l'aider à mettre en application la coutume en usage et sur laquelle ils se sont entendus.

Par ailleurs, à défaut d'autres coutumes antérieures ou contemporaines émanant des mêmes qsur-s, et qui permettraient de mieux juger, celles-ci semblent exprimer l'adaptation d'un fond ancien de la coutume à une nouvelle réalité économique et sociale. C'est ainsi qu'à une ou plusieurs dispositions anciennes viennent s'ajouter d'autres nouvelles dispositions nécessitées par l'évolution de l'économie rurale. La nature des sanctions prévues pour chaque délit commis en rend bien compte. Ainsi on peut faire la distinction entre deux sortes de sanctions : mixtes et pécuniaires. Les premières s'appliquent singulièrement à des actes jugés très graves tels le rapt d'une femme, le meurtre etc. Ces santions ont un caractère vexatoire. La partie de la sanction qui devait être payée en nature, sous forme d'un repas offert à quelques notables ou à l'ensemble de la communauté, ne peut que refléter un état ancien de la coutume. D'ailleurs plus typique à cet égard est le terme utilisé localement pour qualifier cette partie payée en nature par la sanction mixte. Ce terme est celui d'AFANIG(12) ou LMABITA(13). L'un et l'autre cas renouent avec une tradition séculaire consistant à réunir un certain nombre de gens de la communauté autour d'un repas. Ces festins, certes, occasionnels, permettaient à la Jmâa de la communauté villageoise de faire le point sur les questions qui devaient être d'actualité.

---

12 - et 13 - Voir respectivement les notes 24 et 25 de notre traduction infra, pp. 17-18.

D'une facture moyenne, notre document se présente sous forme d'une seule feuille de papier de mauvaise qualité mesurant 22x12 cm. Au texte initial s'étalant sur le recto et le début du verso (2 lignes), viennent s'ajouter deux additifs émanant de deux scribes différents et écrits à deux époques également différentes. Tandis que le premier plus ou moins long (8 lignes) a été exécuté au mois de rabie II 1299 heg./1881, l'autre a été rédigé deux mois plus tard c'est-à-dire au mois de Jumada II de la même année.

Manifestement les trois scribes du texte ne se sont pas souciés de la transcription qu'ils en on faite. Non seulement ils n'utilisent pas de ponctuation, mais ils ne respectent pas non plus les règles élémentaires de la grammaire arabe. Cela n'a rien d'étonnant, car vivant dans un milieu berbèrophone, leur culture était limitée en matière de littérature et de langue arabes . D'où leur recours inévitable à leur parler berbère pour y puiser les tournures qu'ils ne pouvaient exprimer parfaitement en arabe.

C'est ce qui explique en partie leur style mâtiné d'expressions partiellement ou littéralement traduites. Le texte contient plusieurs de ces expressions. D'une lecture aisée cependant, notre texte présente les caractéristiques déja connues à cette "littérature contractuelle rurale"[10] qu'a largement étudiée L. Mezzine dans ses travaux. En somme, le texte présente un intérêt double: historique et philologique.

Au premier abord, les Ti'qqidin[11] ou coutumes des Ayt Iḥya du Dadès, quoique n'intéressant que quelques aspects de la vie qsurienne, ressemblent à bon nombre de coutumes du Maroc présaharien. Issues d'une reconciliation entre quelques notables de la tribu, ces coutumes ont été élaborées lors de la désignation du cheikh à qui, il appartenait désormais de les faire respecter. Elles se

10 - Voir les travaux de L. Mezzine déja cités plus haut.

11 - Pluriel de Ta'qqitt. Les lois régissant les relations sociales sont ainsi appelées également au Dadès.

Néanmoins, comme pour la plupart des communautés villageoises du Maroc présaharien, notre connaissance historique sur le peuplement et l'occupation du sol dans le Dadès dont font partie les Ihya, reste après tout, très maigre. Mais généralement de par sa situation géographique le Dadès est un carrefour de deux importants axes de communication: Nord-Sud et Est-Ouest. Région de passage obligé entre le Haut Atlas central et le Saġro, le Dadès a été sans cesse au fil de son histoire, l'objet de nombreuses convoitises. Inutile de dire toutefois que son peuplement a été de la sorte marqué par les interminables incursions dont il a été le théâtre. La bigarrure tribale de son peuplement le démontre bien.

Aussi les quelques coutumes communes à un groupe villagois du Dadès récemment découvertes, revêtent-elles pour son histoire, un intérêt que l'on peut, sans exagérer, qualifier d'exceptionnel.

En outre, l'intérêt que comporte une meilleure connaissance de l'étude des coutumes pour la société rurale marocaine d'antan, n'est plus à démontrer. Cet intérêt a été récemment mis en lumière par quelques rares études(9). Aussi la publication de ces coutumes contribuera- elle à mieux cerner les problèmes, à les voir sous un nouveau jour, surtout dans un domaine où la recherche historique marocaine n'en est qu'à ses débuts. Beaucoup de choses restent à faire. Ainsi il est souhaitable que soit achevée, en premier lieu, la géographie des coutumes marocaines.

---

9 - En particulier Larbi MEZZINE: *Contribution à l'histoire du Tafilalt, Aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain aux XVII° et XVIII° siècles à travers l'analyse de quatre documents inédits*, 3 vol, Paris Sorbonne, 1977 Thèse dactylographiée -. Voir également du même auteur: Ta'qqitt de Ayt Atman: le recueil des règles de coutumes d'un groupe de qsur de la moyenne vallée de l'oued Ziz, dans Hespéris-Tamuda, 1980-1981, pp.89-12, cf/ aussi Omar AFA, Qira-a Tarihya fi Alwahi qaba'ili Suswal Atlas Assagir, dans AFAQ, n° de janvier 1982,pp. 39-48 (article en arabe).

marquer ces mêmes régions à partir au moins de la deuxième moitiè du VIII° siècle. Voisin de Todga et de Tafilalt, régions qui, on le sait, ont joué un rôle important dans le Maroc du Haut Moyen Age, le Dadès ne pouvait se replier sur lui-même. Toutefois, si la fodation de Sijilassa dès 757, avait contribué à la disparition mystérieuse des villes de Todga et Ziz[6], rien ne nous autorise dans l'état actuel de nos connaissances, à dire que cette même fondation a eu des conséquences néfastes sur le Dadès.

Mais après un long silence, les Ayt Sedrate ont fait parler d'eux au cours du premier tiers du XVIII° siècle alors qu'ils avaient conquis une partie relativement importante de la haute vallée de l'oued Dra[7]. À notre avis, cette conquête sur laquelle nous n'avons, comme pour l'ensemble de l'histoire des Ayt Sedrate, que peu d'informations, n'avait pour but - G. Spillmann l'a déjà exprimé avant nous- que d'assurer à la tribu le contôle des terrains de parcours du Jbel Sagro. Tribu semi-nomade, les Ayt Sedrate étaient encerclés de tous côtés par d'autres tribus telles que Imgunn et Imegrann. Celles-ci leur disputaient non seulement le contrôle des pâturages du Sagro mais aussi ceux d'Imlil. Pour rompre avec cette situation défavorable, les Ayt Sedrate devaient trouver un exutoire dans la conquête du Haut Dra. Mais on peut se demander si cette conquête n'avait pas été dictée par d'autres facteurs. Tout ce que l'on peut dire actuellement, c'est que l'histoire des rapports des Ayt Sedrate et des différentes tribus de la région est marquée par d'inlassables luttes pour le contrôle de ces régions. Ces conflits ont continué à se produire occasionnellement jusqu'à une époque récente[8].

---

6 - En ce qui regarde la disparition des villes de Todga et Ziz, voir Dj. Jacques Meunier, Le Maroc saharien des origines à 1670, Ed. Klincksieck, Paris, 1982, T.I, p. 127, note II.

7 - Voir notamment G. Spillmann, *Villes et tribus du Maroc* VI. IX. Tribus berbères, t. II, Districts et tribus de la haute vallée du Dra, Honoré Editeur, Paris, 1931, p.65.

8 - Nous faisons particulièrement allusion aux problèmes survenus en 1968 entre Ayt Sedrate et Imgunn au sujet des pâturages du Sagro.

Dans son étude consacrée à la vie pastorale dans le Haut Atlas central G. Couvreur n'a pas manqué de noter pertinemment qu"Une tradition solide fait des Ayt Sedrate un groupe venu du Nord à contre courant du mouvement général (Sud-Nord): tribu du Maghzen idrisside, ils se seraient installés dans le Dadès au XI° siècle à l'appel de Chorfa également idrissides, première manifestation du rôle joué dans l'histoire du pays par de saints personnages"[5].

En effet, les Ayt Sedrate comme le veut la tradition racontée encore de nos jours dans ces régions, seraient d'origine Sanhaja, mais du nord. D'après la même tradition, ils se sont établis dans le Dadès à la suite de sa conquête par Mulay Ba'Amran dont le tombeau, se trouve à la Zaouia portant son nom et qu'il aurait fondée au Dadès à une date inconnue. On ne sait rien sur lui si ce n'est, nous dit la tradition, qu'il appartenait à la descendance d'Idris II.Il aurait gouverné entre autres, le Dadès à un moment donné. Pour y asseoir son pouvoir, il aurait fait venir les Ayt Sedrate en tant qu'armée. Une fois sa conquête acquise, nous dit la légende, il les y installa. Assuré de leur protection, il implanta sa zaouia au sein du territoire qu'ils venaient de conquérir en son nom.

Ainsi les Ayt Sedrate seraient, comme on le prétend encore de nos jours, originaires des régions de Fès ou de Meknès (berceau des Idrissides). Faut-il ajouter qu'à cet égard, les intéressés mettent encore actuellement, un accent particulier sur leurs liens étroits avec des groupements imports de ces régions tels que Ayt Sadden en particulier. Quoi qu'il en soit, en dépit du caractère légendaire de nos informations fragmentaires, l'installation des Ayt Sedrate dans ces régions du Maroc présaharien semble correspondre à une évolution dont on ne saisit encore, ni les causes, ni la portée, et qui a dû

---

5 - Cf.g. Couvreur, *la vie pastorale dans le Haut- Atlas central*, in Revue de géographie du Maroc, n° 13. 1968, p.14.

COUTUMES INEDITES DES QSŪR-S AYT IḤYA: GROUPE DE QSŪR-S AYT SEDRATE DE L'OUED DADES (1881)*

Les qsur-s[1] Ayt Iḥya s'égrènent plus volontiers le long de la basse vallée de l'oued Jamu[2] (ancienne appellation de l'oued M'Goun) à proximite de son confluent l'oued Dadès. Ils s'implantent continûment le long de ce dernier. Les Ayt Iḥya font partie du groupement Ayt Sedrate. Mais tout comme les autres groupements Ayt Sedrate ils se divisent en deux fractions principales: Ayt ZULI et Ayt M'HALI dits Ayt MELWANN[3]. Faute de renseignements, la signification historique que recouvre cette dichotomie nous échappe. Disséminés actuellement dans le Dadès et le Dra, les Ayt Sedrate[4] apparaissent comme un groupement tribal relativement cohérent devant jouer un rôle important dans cette région du Maroc présaharien.

---

* - Article publié dans Hespéris-Tamuda, vol. XXV, fascicule unique, 1986, pp. 91 - 106.

1 - La terminologie locale désigne ces villages par le terme IGERM PL. IG ERMAN.

2 - et 3 - Communication orale recueillie sur place.

4 - Ils s'agit respectivement des groupes suivants:

- Ayt Sedrate de la montagne appelés Ayt Igil, établis dans le haut Dadès depuis une époque indéterminée.
- Ayt Sedrate de la plaine fixés dans la basse vallée de l'oued M'Gouna et la moyenne vallée de l'oued Dadès depuis une époque également inconnue. Outre les Ayt Iḥya, les Ayt Rb'mya en font également parie. En amont des premiers sur l'oued Dadès, les Ayt Rb'mya sont ainsi appelès parce que, dit-on, ils payaient à une époque indéterminée, 400 nayba-s au Makhzen. Une autre version de la tradition fait venir cette appellation du fait qu'ils étaient capables, contrairement à d'autre groupements du Dadès, de fournir 400 plats de victuailles (couscous notamment) pour chaque Diafa makhzenienne. Pour invérifiables qu'elles soient actuellement, ces informations sont significatives tout de même.
- Ayt Sedrate du Dra dits Iqblyen, enfin, habitant le Haut Dra depuis le XVIII° siècle.

Royaume du Maroc
Université Mohammed V - Souissi
Institut des Etudes Africaines
Rabat

Série : Recherches et Etudes (12)

ASPECTS DE L'HISTOIRE ET DE LA CIVILISATION DE LA VALLEE DU DADES

Mohammed HAMMAM
Professeur d'Histoire Médiévale à
la Faculté des Lettres de Rabat

Publications de l'Institut des Etudes Africaines
2002

Royaume du Maroc
Université Mohammed V - Souissi
Institut des Etudes Africaines
Rabat



Série : Recherche et Etudes (12)

ASPECTS DE L'HISTOIRE ET DE LA CIVILISATION DE LA VALLEE DU DADES



Mohammed HAMMAM
Professeur d'Histoire Médiévale à
La Faculté des Lettres de Rabat

Publications de l'Institut des Etudes Africaines
2002